(فهرست الكتاب)

صحيفه

وكيفية

صحيفه

صحيفه

صحيفه

بيان الخطا والصواب الواقع فى هذا الكتاب

خطا	صواب	صحيفه	سطر
شهدت	شاهدت	١٧	٨
الحرب	الحروب	٢٣	١٠
النفك	التفكر	١٠١	٤
منجمد	منجمدا	١٢١	٥
فلبث	فلبثت	١٤٩	١٤
امل	أوتمل	١٤٦	١٠



ان أبهج ما تحلت به الطروس * وخير ما تنافست به نفائس النفوس * حمد من تفرّد بالاحاطة باحوال الكائنات * وشكر من اختص بعلم جميع الجزئيات والكليات * وصلاته مع التسليم * على نبيه الكريم * من شرّفه برؤيته بلا انحصار ولا كيف * وانزل عليه لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف * افضل من هاجر وارتحل * وعن وطنه تحوّل وانتقل * وعلى آله واصحابه * وانصاره واحبابه * الذين طافوا فى الجهات لفتح البلاد * وساحوا فى الارض لارشاد العباد * ثم الدعاء لعزيز مصرنا * وغرّة جبهة عصرنا * من

اظل

اظل الديار المصرية بظل الامان * وأفاض على اهلها بحار
الاحسان والعرفان * من هو الفرقد الثانى * فى افق الصدارة
العثمانى * حضرة الحاج محمد على باشا * بلغه الله فى الدارين
مايشاء وماشا * اما بعد فيقول راجى رحمة ربه القدير *
ابراهيم مصطفى المشهور بالبياع الصغير * هذه خدمة يسيرة *
وتعريب رحلة صغيرة * للمؤلف او بيرثولد * ألفها
فى سياحته الى بلاد الهند * وجدت فى كتبخانة حضرة البيك
المفخم مدير المدارس * التى هى فى الديار المصرية من اينع
المغارس * من اجابته السعادة بلبيك * سعادة امير اللواء ادهم
بيك * لازالت كواكب سعوده فى سماء المعالى ساطعة *
ولابرحت شموس معارفه فى افق المدارس طالعة نافعة *
فصدر الامر بترجمتها من الديوان * الى حضرة علامة الزمان *
من رقى فى مراقى الشرف ارفع محل واعظمه * حضرة امير
الالاى رفاعة بيك ناظر قلم الترجمة * فعيننى حفظه الله لترجمتها
من اللغة الفرنساوية * وافراغها فى قالب اللغة العربية *
فشمرت فى تعريبها عن ساعد الجد والاجتهاد * راجيا
من الله تعالى التوفيق الى طرق السداد * ومؤملا حسن
القبول * وشمول النظر على وفق المأمول * فأقول وما توفيقى
الا بالله * فى ابتداء امرى ومنتهاه * قال صاحب الاصل

(الباب الاول)

في ذكر مايتعلق بمدينة قلقوطة المسماة ايضا كلكته وسواحل نهر اوغلي وعمارات تلك المدينة وحاراتها وما فيها من جمعية الآداب المشرقية والمدرسة السانسكريتية (اى التى يتعلم فيها لسان الهند القديم) ومجامع امناء الدين والعوايد الهندية والخدم من اهلها وكيفية المعيشة فيها وجلب الطائفة المسماة كوليس الى خارج بلادهم وبيان مايتعلق بمدينتى سرانبور وشاندرناغور

كان ابتداء رحلتى فى البحر من مدينة غراوسند فى العاشر من شهر اغسطوس سنة ١٨٣٧ من الميلاد وقد كنت اود أن اسافر فى سفينة من سفن الدولة الانكليزية على طرف الميرى فلم يتيسر لى ذلك فآثرت السفر على طرفى فى سفينة من السفن الانكليزية مؤملا أنى اجتمع فيها ببعض اناس ممن سافروا الى تلك البلاد واستوطنوها وصار لهم فيها وظائف وخدم فأستعين بهم واسترشد بنصائحهم واشد بهم عضدى فى ادراك ما أنا بصدده من الرحلة الى تلك الجهة فقطعت مسافة من البحر وانا على احسن حالة ثم خرجت على قلقوطة فى السابع عشر من شهر دقبر من السنة المذكورة

وهذه

وهذه المدينة واقعة على نهر صغير يقال له اوغلى وهو فرع من فروع نهر الكنك تصعب فيه الملاحة جدا لاسيما الصعود فى فصل الشتاء الذى هو فى الغالب وقت تسلطن الرياح الشمالية على هذا النهر وفيه مراكب بخار لجر السفن بالاجرة واجرتها فى اليوم اربعمائة من النقود المسماة ربية (وقدرها ألف فرنك)

ونهر الكنك ينقسم عند مصبه الى فروع لا تحصى كثرة منها فرعان اصليان يحيطان ببقية الفروع ويتكون بينهما قطعة من الارض على شكل زاوية تسمى الدلطة الهندية وهذا الجزء من الساحل لا يمكن الوصول اليه ويسمى عندهم ساندربند والربانية اى رؤساء السفن يمكثون تجاه مصب النهر المذكور فى سفن صغيرة معتنى بتنظيفها على ما ينبغى وهم محكومون من طرف القمبانية الانكليزية لتلقى المرضى الذين يأمر لهم الاطباء باستنشاق هواء البحر فيمكثون بها عندهم بعض اسابيع ويدفعون لهم مبلغا من الاموال فى نظير خدمتهم ومؤونتهم فهذا هو اصل اكتساب هؤلاء الربانية الذين هم فى سعة من العيش ولهم خدم واتباع بحيث اذا ارادوا الذهاب الى قلقوطة ذهبوا اليها فى نفر عظيم من أتباعهم

ومن مدخل هذا النهر يأتى ضابط من ضباط ديوان الجمرك ويمكث فى السفن التى هنالك وهؤلاء الضباط وكذلك الربانية لا مشابهة بينهم وبين ضباط الجمرك والربانية باوروبا فان من رأى هنالك قبانية الانكليز تعجب من اول وهلة من اتساع دائرتها وكثرة مصالحها وخدمها ولا يجد فى ديوان الجمرك من موجبات السآمة والضجر ما يجده فى بلاد اوروبا بل يصدق اهله كل ما يدعيه المسافر وقل أن فتشوا ما معه من الامتعة والبضائع *

وشواطئ نهر الكنك مغروسة بالاشجار اللطيفة المورقة دائما وفى وسطها اصنام واخصاص هندية ومنتشر فيها خمائل من اشجار جوز الهند والنخل والموز يجلس تحت ظلالها قوم سود الالوان نحاف الاجسام يأتون اليها فى زوارق ويبيعون للمسافرين ما معهم من ثمار المدينة وفى اوقات الدعة والبطالة يغتسلون فى النهر فينزلون فيه جميعا رجالا ونساء كبارا وصغارا وينظر بعضهم عورة بعض بدون حياء ولا خجل فكأن سواد لونهم يقوم عندهم مقام الساتر كما قاله الاسقف ايبير ويسمع لهم فى الليل على بعد غناء يصحبه صوت آلاتهم المسماة تمتام ويصحب ذلك ايضا عواء ابن آوى الشبيه بصوت النائح الحزين واذا انحسرت مياه البحر انكشفت

شواطئ

شواطئ النهر فتأتى اليها تماسيح كبيرة يقال لها كايمان فتنغمس الى اوساطها فى اوحال تلك الشواطئ حتى يظهر للناظر من بعد انها سوق اشجار مطروحة فقد اتفق أن شابة مقنعة الوجه مرت قريبا من احد هذه التماسيح فما كأنها شعرت بذلك لعدم ما يدل على حيوانيته من التحرك وغيره واذا قربت من قلقوطة وجدت حركات السفن الصاعدة والمنحدرة لاسيما السفن الصينية ذات الشراعات الملونة وكذلك القرى اللطيفة المبنية على الشاطئ تجعل لتلك الارض منظرا آخر ظريفا له فى النفس موقع عظيم لكونه يعقب منظر البحر الدائم الموجب للضجر والملل * وبالجملة فهذا المنظر الجديد الذى لا يعرف الى الآن الا فى مجرد الرسم والتخطيط يورث العقل افكارا غريبة ويحدث فى الفكر تصورات عجيبة فمن ثم كنت لا اسأم من ترداد الطرف نحوه وادمان النظر اليه غير أن به من جهة اخرى ما يعكر المزاج ويشوش الخاطر وهو مشاهدة الرمم التى تتلاعب بها الامواج وما يشم من رائحة الموتى الذين يحرقونهم على الشواطئ وتزدحم عليها الكلاب والغربان والنسور بل تجدها فى نفس المدينة سابحة حول السفن فمثل هذا المنظر الذى لا يتغير هو مما يشوش خاطر من كان رقيق المزاج من اهل اوروبا حتى ان ذلك

يمنعهم من شرب ماء النهر فان فقراء الهنود يلقون موتاهم في الانهار بخلاف اغنيائهم فيحرقون من مات منهم فتنتشر رائحتهم الى اماكن بعيدة وليس تشويش الخاطر لمجرد كون هذه الرائحة كريهة جدا بل لكونها ايضا تذكر من يشمها هذه العادة الذميمة

ثم ان مدينة قلقوطة تسمى عندهم مدينة القصور لعظم بيوت اعيانها وفيها كثير من آثار الفنون والامور النافعة وفيها ايضا منساجر لمد السفن ومعامل للحديد وورش لعمل آلات الوابورات وقلعة وسراية لاقامة الحاكم وكنائس وأرصفة وديوان بجرك وضربخانة وبانكه وبرك يكتنفها منتزهات وفيها ايضا مدارس واسبتالية ومنتدى لاعيان المدينة ومحكمة لفصل الدعاوى وتياتر اى ملعب وعمارات اخرى غير ذلك ولا شيء من هذه العمارات غريب البنيان حسن الهيئة غير انها من حيث مجموعها لطيفة مستحسنة * وبمجرد الوصول الى تلك المدينة ترى الحصن وحدائق خورانقي المتسعة والعمود المرتفع فى وسطها وما يكتنف ذلك من البيوت اللطيفة وسراية الحاكم وصوارى السفن السائرة لكثرتها مياه النهر كل ذلك يتكون عنه منتزه عظيم من اظرف منتزهات الدنيا * وبالجملة فمدينة قلقوطة

هي

هى بلا نزاع الطف مدن الهند على الاطلاق وان كان مافيها قريب عهد بالتجدد والحدوث

ومساكن الخواص فيها تشتمل على ايوانات واعمدة وازجة وقاعات متسعة لتلقى الناس ومما يزيدها عظما وبهجة ساذجية اثاثها وفرشها وسطوح بيوت تلك المدينة مستوية بحيث تصلح للتريض والفسحة وبيوت اهلها المتأصلين بها تحتوى على صحن فيه حوض ماء لاجل جلب الرطوبة والطراوة فى داخلها وعلى ازجة مكشوفة مشرفة على الاصحن بحيث يمكن للنساء التريض والفسحة فيها بدون أن ينظرهن احد

وازقة هذه المدينة ليست على نمط تلك العمارات فى الرونق والبهجة فانها عادة تحتوى من احدى جهتيها على جدول ماء جار يتردد اليه اهل المدينة لاجل التنظيف وتحسين الهيئة ومن الجهة الاخرى على جدول ماء راكد يمكث فى مقر واحد عدة اشهر وله رائحة كريهة تضر بصحة اهل المدينة * ومن الغريب أن الانكليز يتحملون مثل هذه الوخامة مع أن لهم فى غير ذلك مزيد اعتناء واهتمام ومعظم نظافة الازقة وازالة القاذورات هنالك موكول لطير الكركى فلذا كان هذا الطير تحت حماية الضابطخانة الانكليزية

وكل من تعرض له بالقتل يدفع مغرما معلوما
وعلى الشاطئ الآخر من النهر بستان نباتات متسع يتردد
اليه الناس قليلا وارباب الادارة هنالك يحسنون ملاقاة
من قدم عليهم من السياحين ويقابلونهم بالترحيب والبشاشة
واسباب التعلم والتعليم هنالك ميسرة مسهلة
ثم ان المحل المعد لمجالس جمعية الآداب المشرقية يشتمل على
تحفخانة وخزانة للتاريخ الطبيعي وعلى كتبخانة لم تزل تزداد
فيها الكتب وتتجدد بتجدد الايام وقد صغر هذا المحل الآن
عما كان عليه سابقا وتجد في صحنه مقدارا عظيما من التماثيل
والاحجار المنقوشة بالكتابة وهذه الجمعية التى أسسها
سير وليام يونس لتكون مركزا لجميع المعارف التى تعود
بالنفع على بلاد الهند قد وفت بما كان يؤمله منها مؤسسها
حيث جاءت على طبق مرامه بالكلية فان علماء الآداب
والآثار القديمة وعلماء الطبيعة وكذلك ارباب الحرف
والصنائع يجتمعون فيها ويأتون اليها بثمرات اعمالهم
واجتهاداتهم * وفى هذه الازمنة الاخيرة قويت الرغبة
فى العلوم الطبيعية حتى صار يخشى من ذلك على الآداب
أن تتعطل وتمسك عن التقدم بترك ممارستها ومطالعة كتبها
بل تعطل نشر الكتب السانسكريتية لكن بمنه تعالى

لم

لم يمكث ذلك مدة طويلة فانى لم افارق مدينة قلقوطة حتى شكرت ارباب الجمعية على ازالة هذا التعطل واثنيت عليهم الثناء الجميل وفاء بحق شكر تلك النعمة الواجب على كل راغب متولع بالآداب السانسكريتية فان الفضل لهم فى هذا الصنيع لاسيما لمسيو برنسيب الذى جمع بين معرفة الآثار القديمة وعلم الطبيعة فانه لم يال جهدا فى هذا الغرض المحمود ولكن من سوء الحظ كان هذا آخر المجهودات التى بذلها فى توسيع دائرة العلوم هذا الحبر الذى اشتهر بكثرة المعارف على اختلافها وعرف بحسن الاخلاق ولطف الشمايل

وفى المدينة ثلاث مدارس كبيرة احداها المدرسة السانسكريتية والثانية مدرسة المسلمين والثالثة المدرسة المعدة لتعلم لغة الانكليز والهند * فاما الاولى فيتعلم فيها لسان الهند القديم بسائر فروعه فيقرأ فيها من النحو اجروميسة المؤلف ووبدوا ويقرأ فيها ايضا علم البيان والاحكام الشرعية والعلوم الرياضية والهيئة وقد حضرت فى هذه المدرسة بعض دروس فوجدت التلامذة فيها الاحرج عليهم فى التكلم والتنقل من موضع الى آخر مع أن السكون والرزانة من خصوصيات اهل المشرق الا أنهم لا يحثون على ذلك

فى مدارسهم * والپانديتية اى المعلمون لهذا اللسان ينطقون بألفاظ اللغة الخاصة بالعلوم كما ينطقون بألفاظ اللغة العامة المتداولة بين الناس وهو نطق وحشى فاسد مخالف للحدود المقررة فى النحو خال عن التناسق والائتلاف فتراهم ينطقون بأحرف الصفير الثلاثة كالحرف الذى مخرجه اللسان وهو الشين ولا ينطقون بالالف المقصورة فى اوساط الكلمات ولا فى اواخرها ويعوجون افواههم تعويجا عنيفا عند اختلاس الحركة او الوقف على حرف الغنة * وتلك الدروس يحضرها الناس كثيرا وهذه التربية التى هى عبارة عن علم بلا عمل لا يترتب عليها ثمرة فان التلامذة بعد خروجهم من المدرسة بقليل لا يعتنون بشأن ماتعلموه فيها كما يقع ذلك عادة ببلاد اوروبا فى شأن دروس المدارس الكبيرة واغلب شيوخ الپانديتية لايتكلمون الا باللسان البنغالى بخلاف الشبان فان اكثرهم يتكلم باللسان الانكليزى وقد اخذت واحدا منهم لاجل القراءة عليه فوجدته لا يقدر على توضيح ماخفى معناه من العبارات النحوية واخبرنى أنه انما تعلم النحو بمجرد الحفظ من غير تعقل لمعناه كبقية اخوانه وانما كان يحسن تفسير غير ذلك من عبارات الكتب السانسكريتية وكان كالاخرس

بالنسبة لما يخص الدين فكان لا يتفوه فى هذا المعنى بشئ
وابى أن يطالع معى الجزء الثانى من كتاب مانو لكون
شرحه يشتمل على بعض كلمات من ويدا (هو كتاب عقائد
الهند وديانتهم) ولكنهم يتساهلون مع اغنياء الانكليز اصحاب
المناصب العالية ولا يدققون معهم كغيرهم فلذا استعان بهم
الانكليز على تراجمهم الاولى وتأليف كتبهم الاولية فى النحو
وعلى تأليف قواميسهم ومن ظن أنه يكتسب منهم شيأ
بالمخالطة والملاطفة فذلك منه محض غرور لا طائل تحته
ومما يشهد لذلك أنه كان معى عدة مكاتيب من طرف موسيو
نورواير احد ضباط الجهادية الى رجل من اغنياء اهل
قلقوطة وعظماء اعيانها المعتبرين يقال له رضا كنتيب
وكان قد ألف قاموسا واهدى منه الى كثير من الناس
فطلبت منه نسخة فلم يسمح لى بها فقيل لى ان توجهك الى منزله
وسعيك لزيارته هو الذى قعد بك عن الاعتبار لديه واوجب
استصغارك فى عينيه وهذا هو الواقع فانه لا يفوز بمرامه
عند اهل الهند الا من كان ذا ثروة وشوكة
وكثير من اهل الهند من يتعلم اللغة الانكليزية والهندستانية
والفارسية ليتقلد بالوظائف والخدم التى لا بد فيها من
معرفة هذه الالسن

وهنالك جمعيات معدّة لنشر الدين وتوسيع دائرته الا انها قليلة الجدوى وقد ذكر لى جماعة من الطائفة القسيسية الانكليزية انهم شاهدوا انتشار الدين القاثوليقى الرومانى مع قلة الاعتناء بشأنه هنالك ولما كان للعامة من الاهالى ميل شديد الى الظهور بمظهر الابهة والتحلى بالحلى الظاهرية وكان لقسوس الطائفة الانكليزية فى سائر الجهات خدم وحشم وكان لهم فى دعاء الهنود الى دينهم طرق اشدّ فى التأليف والاستمالة مما يسلكه فى ذلك الفقرآء المتقشفون من قسوس الفرنساوية وجب أن نقول ان الذى اوجب قلة نجاح الجمعيات القسيسية فى دعوتهم انما هو قسوتهم وتشديدهم فى التحضيض على قراءة الانجيل وحيث كان الهنود يقرؤن التواريخ الاثرية النصرانية من غير أن يتعلموا قبلها ما يستعدون به لقرآءتها من المبادى كانت لا تنفع فى ارشادهم كما لا تنفع فى ذلك ايضا تواريخهم الهندية على أن بعض تلك التواريخ تمجه طباعهم ولا يلايم عقائدهم وبالجملة فالظاهر أن الاديان عندهم على حدّ سوآء واما رفض الديانة الهندية واجابة داعى النصرانية فانما وقع ذلك من اغلبهم فى زمن القحط والمجاعة حين كان الدعاة يجمعون كثيرا من اليتامى لاجل تربيتهم وادخالهم فى دينهم

والجمعية

والجمعية فى قلقوطة تؤلف من عدد كثير ويحتفلون
احتفال الفرح والمسرّة فاذا قدم الحاكم الى المدينة ذهب
الناس لزيارته كل اسبوع واكثروا من الرقص حتى ان
الانكليز الذين فى بلاد الهند يميلون جميعا الى مثل هذا الرقص
وتستحسنه اذواقهم ويسمونه بالحظ الفرنساوى مع أنهم
يجزمون بأن كثيرا منهم بالنظر لسنه ومقامه يصير
بالميل الى ذلك عند الفرنساوية من قبيل الهزؤ والسخرية
* ويحضر فى جمعيات الهنود بعض اعيانهم حتى ان الحاكم
نفسه يذهب عند بعض الناس فى الولائم والمواسم فقد ذهب
فى مثل ذلك الى دواركانوت طاغور وهو من اغنياء التجار
وكان منذ قليل قد سافر الى مدينة باريس وعدّه
الفرنساوية من امراء الهند

وعوايد الهند القديمة لم تزل باقية على قوتها والمحافظة عليها
غير أنه يحصل فى اجرائها نوادر عظيمة فالشرائع عندهم
تخص كل طائفة بوظيفة فتخص طائفة البراهمة بمطالعة
كتب الدين المسماة ويدا وتدريسها وطائفة الكشاترية
بالحرب ومحافظة المدن والاهالى وطائفة الويسية بالتجارة
والسدرية بالانقياد الى الطوائف الاخرى وامتثال اوامرهم
وتمنع الاكل من طعام جهزه واحد من الطائفة الدنيا فيؤخذ

من ذلك أن اغنياء الهند لهم طباخون من البراهمة وبوابون من الكشاترية وهاتان الطائفتان يقومان ايضا بهاتين الخدمتين اى خدمتى الطباخة والحرس للسياحين من اهل اوروبا وهنالك رجل شهير وهو رضا كنتيب المتقدم وهو وان كان من طائفة السدرية الا انه ذو ثروة عظيمة وفى خدمته كثير من البراهمة وله اعتبار عظيم عند الهنود وانما وصلت اليه هذه النعمة لسعده ووفور حظه اذ قوة تأثير الدرهم والدينار * واحدة فى جميع الاقطار * وهنالك كثير من فقراء البراهمة يتكسبون باشتغالهم وتشبثهم بالحرف والصنائع حسبما اوجبته الشرائع على فقرائهم وقد عرفت منهم جماعة بعضهم سواق عربات وبعضهم حمال تختروانات * والهنود قائمون بما عليهم من الاغتسالات التى كلفتهم بها شرائعهم فيأخذون الماء مرارا ويتمضمضون به ويغسلون اعينهم ونهر اوغلى وان اشتهر أنه من فروع نهر الكنك المقدسة عندهم الا آن واضع شرائعهم لم يلتفت الى مياهه المعكرة بالطين والاوحال والالما ندب الى الاغتسال بها قطعا واهل البلاد ينزلون فيه بثيابهم ويتركونها تجف على ابدانهم ولو فى فصل الشتاء الشديد البرد الذى تتأثر منه الافرنج (المتعودون على تحمل مشاق البرد لبرودة بلادهم) وفى جميع

اماكن

اماكن المدينة تجد تماثيل معبودهم المسمى سيوا وغيره من آلهتهم فيجثو العباد على ركبهم أمامها على رؤس الاشهاد ويكثرون من التلوّى والتعوّج وترى فى المدينة ايضا من ابناء الطريقة المسمين بالفقرآء من ينذر على نفسه أن يمشي رافعا ذراعه الى اعلى او يمشى على ركبتيه ومنهم من ينذر على نفسه امورا اخرى من هذا القبيل وكذلك تجد فيها اثوارا مباركة عندهم يطلقونها تمشى حيث شاءت وقد يطلقون سراحها اذا عرض للعائلة امر مهمّ وقد شهدت من مواسمهم الدينية موسما يسمونه پوجا فرأيت فيه اناسا من ارباب الحمية الدينية يربطون انفسهم بواسطة خطاطيف من الحديد يغرزونها فى اجسامهم على خشبة متحركة ويدورون بدورانها وهم معلقون بها وينثرون على الحاضرين ازهارا وترابا احمر وتراهم يتبسمون مدّة سيلان الدم من جروحهم وحكامهم من الانكليز يقرّونهم على هذه الاوهام الفاسدة واذا اوذوا فى امر دينهم فلا بدّ وأن يموت منهم اناس شهدآء فى حب الدين

ومتى وصل الانسان الى مدينة كلكتة جاء اليه عدد عظيم من الخدم الهنود ومعهم شهادتنامة من ساداتهم الافرنج الذين يدّعون أنهم كانوا فى خدمتهم * وهذه الشهادتنامة

يستعيرونها ويبيعونها من بعضهم ولا يعرفون مضمونها وربما
كان فيها ما يدل على مخاتلتهم وخبثهم وآحاد التجارة والخدم
الافرنج يثنون على خدم الهنود ويمدحون خدمتهم * وقد
تلقب خدم الافرنج الذين ارتقوا الى درجة السيادة واتخذوا
لهم خدما بلقب تشريفى هنالك وهو كلمة صاحب (ومعناه
سيد) ويذهبون لاجل الرياضة والنزاهة بالمدينة فى تختروانات
* وفى هذا الوقت (اى وقت الوصول الى المدينة) يأخذ
القبودان وضابط السفينة خدمهم من الهنود لان نفوسهم
تأبى استخدام الافرنج ويستعظمون أن يروا الافرنجى
خادما * وما يخص الادارة من المصالح والوظائف الهينة
يناط به اناس من الهنود لهم معرفة باللغة الانكليزية *
وكثير من التجار من يتكلم ايضا بهذا اللسان الذى ينتشر
هنالك فى كل سنة اكثر مما قبلها * وبعضهم يتكلم
بالفرنساوية * ويسهل على من تورط فى مشكلة بمدينة
كلكتة أن يتخلص منها بواسطة معرفته للسان الانكليزى
وبعض كلمات من لسان هندستان اوردو * واكثر اللغات
اتساعا فى بلاد الهند هى اللغة البنجالية التى يتكلم بها
الهنود الا أنه قل أن تدعو الحاجة الى استعمالها * والتجار
يعرفون اللغة الانكليزية والشيوخ الباندينية هم قليلوا

المخالطة

المخالطة مع غيرهم * والذى اراه أن معرفة لسانهم ليس لها كبير جدوى

وفى مدينة كلكتة منازل خانات عظيمة ومتاجر فاخرة مما يحصل فى مدائن اوروبا الكبيرة فهى وصلة بين اخلاق الافرنج والهنود * وينتفع السياح بالاقامة فيها مدة انتفاعا عظيما * فانها زيادة على ما يستفاد فيها من انواع المعارف يرغب فيها ايضا لما احتوت عليه من التحفخانة والكتبخانة وبستان النباتات * وصنائعها وتجاراتها عظيمة جدا وتعقد بها المحافل والمواسم وفيها اوهام دين البراهمة وعقائد الاسلام * ولا يمنع اهلها الافرنج من الحضور فى المواسم التى يعملونها بمنازلهم فى الازمنة المعينة لها بمقتضى دياناتهم واظن أن هذا الترخيص لا يقع للافرنج فى غير هذه المدينة من البلاد العليا وفيها ايضا معلمون على غاية من المهارة والمعرفة يسمون باندیتية ومدرسون عظام يعلمون اللغة الفارسية والهندستانية وهما لغتان لا بد منهما لمن اراد السياحة فى بلاد الهند

ومصاريف المعاش الضرورية فيها جسيمة حيث ان امور الرفاهية فيها من الامور الواجبة * وهى وان كانت اثمانها هينة الا انها لا تخلو عن مزيد كلفة ومشقة فان الانسان من

اهلها محتاج لمقابلة ارباب الرتب والمناصب العالية فضرورة قبوله عندهم تلجئه أن يسلك مسلكهم ويتزيا بزيهم

واجرة المنازل الخانة على النازل بها فى كل يوم ست روبيات حسبما جرت به العادة (والروبية فرنكان ونصف فالستة منها تعادل خمسة عشر فرنكا) واجرتها عليه فى كل شهر مائة روبية (اى مائتان وخمسون فرنكا) واقل ما يلزم لمن نزل بها من المسافرين خادم واحد أجرته فى كل شهر ثمانى روبيات وغسال اجرته فى الشهر تسع روبيات تقريبا * واجرة العربة فى اليوم الواحد ثمانى روبيات وفى الشهر مائة وخمسون واجرة التختروانات التى تحمل على ظهور الآدميين فى كل شهر خمسة وعشرون * وهى دائما موجودة فى مواقف المدينة * ومثل هذا الركوب لا يستعمله اهل اوروبا مع أنه اسهل وأدعى للراحة لمن اعتاده

وللطبيب فى عيادة المريض ست عشرة روبية فى كل مرة واجرة المنشئ الماهر اى خوجة اللسان الفارسى والهندستانى وكذلك الخوجة الماهر من الباندتية اى الذين يعلمون اللسان السانسكريتى وهو لسان الهند القديم خمسة وعشرون فصاعدا الى ثلاثين فى كل شهر * واذا استحسن الانسان أن يستأجر لنفسه دارا وهو الاولى لمن احب أن يتعود على

عوايد

عوايد الهنود فالمصاريف واحدة تقريبا * واجرة البيت اللائق فى الشهر اربعون روبية فاكثر الى خمسين ولا بد للانسان من عدة خدم كل واحد منهم يلتزم بالخدمة التى تخصه فمن يمسح السفرة مثلا لا يكنس الارض بل ذلك وظيفة غيره
وكانت الاسواق اولا مهمة فلما اتخذت المخازن الافرنجية والمحال المعدة للبيع فى المزاد اضمحلت حالها وقلت اهميتها *
وما يصنعه اهل الهند المتأصلون يباع بثمن بخس الا أن المشترى غالبا يغبن فى شرائه بخلاف البضائع الافرنجية فانها غالية جدا
وفى المدينة قهوة اوقهوتان يتعاطى فيهما المشروبات الثلجية ويجلب اليها الثلج من امريقة فيشترى الهنود من ذلك جميع ما يأتى اليهم منها ولو لم تدع الحاجة اليه *
وانما ذكرنا ذلك لنبين كثرة بذلهم حتى فى الاشياء التافهة
ولهم مزيد اعتناء بعربات النقل ولا يقبلون فى مدينتهم فيلا ولا جملا خشية أن تفزع من ذلك الخيل وهذا خاص بمدينة كلكتة دون غيرها
ثم انه يمكن للانسان أن يضع ماله عند الهنود بالمرابحة فيأخذ ربح المائة تسعة فى السائر الجارى فان وقف على ثلاثة

اشهر اخذ ربحها اثنى عشر وهذا المقدار اعنى الاثنى عشر
هو ما جرت به العادة عندهم فى المشتروات ذوات الاسقاط
ولا تعرف بانكات اوروبا هذا التغالى فى الاسعار فان بانكة
بحالة لا تجعل على المائة الا اربعة
والربا عند الهنود غير محظور فقد لا يتيسر القرض الا لمن دفع
ربح المائة خمسين ولا ادرى هل نبه مشرعو الافرنج على مثل
هذه الصورة * وكيف يتكلم من قانون التجارة على قرض
اختص به القبودانات
وفى كلكتة من انواع التجارة نوع من جلبة الرقيق وهو
جلب طائفة الكولية باستمالتهم وترغيبهم باموال مخصوصة
حتى يخرج هؤلاء المساكين من اوطانهم الى الجزائر الممنوع
فيها الاسترقاق ولا يدرون ماذا يصنع بهم ولا كيف
تكون عاقبة امرهم فيجمعونهم فى بطون السفن المعدة لذلك
ولخشية هروبهم يتركونهم فى هذه الحال مدة رجوعهم
فى النهر حتى تنقطع انفاسهم فقد اخبرنى من اثق به أنه كثيرا ما
هلك اناس من هؤلاء الاسرى الاشقياء من العطش والحر
حال انحدارهم فى النهر المذكور وقد عاين هذه المعاملة
السيئة جماعة من اهل الرأفة والشفقة الذين لا يرون جواز
جلبة الرقيق لما عندهم من خلوص الطوية وسلامة الباطن

فانكروا هذا النوع الجديد من الجلبة المذكورة غير أن الحكومة لا تتأثر من مثل ذلك ولا تستثقله وفى اقليم بنجالة الذى هو اعظم اقليم الهند ثروة رجال يستأجرون انفسهم فى كل شهر بروبية اورو بيتين فقط ولا يعطى لهم شئ يقتاتون به زيادة على ذلك ولا يتأتى شراء الرقيق فى هذا الاقليم بثمن رخيص والانكليز وان كانوا دائما مجتهدين فى ابطال الجلبة متعللين بأن ذلك هو ما تقتضيه الشفقة والرأفة الا أنه كان الواجب عليهم أن لا يتشبثوا بما ينافى هذا الاجتهاد والحمية واذا صعدت فى النهر وجدت فى مدينة برّكبور بيت نزهة الحاكم وعدة عمارات اخرى تحت يد الاجانب وفى مدة الحرب التى وقعت فى بلاد الهند اقام تجار الانكليز الذين كانوا تحت حماية الدانيمرقة فى العمارة الدانيمرقية بمدينة سيرنبور وكان يأتى الى الدانيمرقة من طرف الانكليز الاذن والتفويض بالبيع والشراء والاخذ والعطاء فعاد ذلك عليهم بالثروة الجسيمة والغنى الوافر ولما انفسخت المعاهدة بين الانكليز والدانيمرقة اجتاز النهر جماعة من ضباط الانكليز واستولوا على اموال معاهديهم من الدانيمرقة الذين لم يكن لهم وقتئذ ظهير ولا نصير ولم يلحق الانكليز من ذلك خجل ولا استحياء ولم يخشوا منه معرة ولا فضيحة ومن يومئذ لم تبق مدينة

سنر نيور الادارا قامة الدعاة المبعوثين الى بلاد الهند فانشأوا فيها دار طباعة وطبعوا فيها الكتاب المقدس مترجما الى عدة لغات من لغات الهند ونشروه بتلك البلاد ولم يزالوا ينشرون ايضا كتبا اخرى باللغة الهندستانية والفارسية واللغة الهندية القديمة

واما مدينة شاندرناغور فهى واقعة على البعد من مدينة كلكتة بستة فراسخ ويتعذر عندها صعود السفن فى النهر فيلزم دائما حفر الخلجان حتى تكون الملاحة الى كلكتة ممكنة متيسرة ولا مانع أن طبيعة تلك الاراضى يؤول امرها الى أن تظهر على جميع المجهودات الصناعية فان هذا الجزء من بلاد الهند يشتمل على ارض كبيرة متكونة من رسوب الطين وتراكمه فى الشواطئ ثم ان ماعليه هذه المدينة من سوء الحال وسوء معاملة من بها من المستخدمين وارباب الوظائف يوقع فى الذهن أن الاسم الفرنساوى اى لفظ فرنساوى ليس له فى بلاد الهند كبير اعتبار ولا مزيد احترام ووقار فان مدينة كلكتة هى التى فيها الاخذ والعطاء وسائر المعاملات التجارية وقد كان قبودانات السفن منذ سنتين لم يزالوا مجبورين على تحرير اوراقهم فى مدينة شاندرناغور فكان يضيع منهم فى ذلك مصاريف كثيرة وازمان كبيرة

ثم ترتب

ثم ترتب فيها قنصل اونائب يقوم مقام القنصل فى تأدية وظائفه الا أن مزايا هذا النائب ليست متسعة الدائرة فلم يترتب على تنصيبه فيها كبير جدوى

فالواجب حينئذ عدم التعويل على هذه المدينة بل يلزم أن يكون فى مدينة كلكتة نائب مفوض فى جميع المصالح وأن يكون ذا خبرة ودراية عظيمة بتجارة الهند وان لم يكن من زمرة التجار فان ضرورة الاحتياج اليه فى قضاء المصالح تكسبه من المزايا ما يفوق به غيره ويلزم ايضا أن يكون له ماهية جسيمة ومرتبات عظيمة وأن يكون فى وسعه تأدية النيابة عن الدولة الفرنساوية على وجه لا يخل بشرفها ولا يزرى بعظمها

ثم ان البقعة الواقعة فيها هذه المدينة مرتفعة وهواءها ملايم للصحة اكثر مما جاورها من المحال ودار الحكم بها متخربة البنيان وأسوار بستانها آيلة للسقوط ولم يبق للدولة الفرنساوية فى هذا الجزء من بلاد الهند الافرقة من العساكر الاسباهية تبلغ عدتها احدا وعشرين رجلا ومحكمة للنظر فى الدعاوى اول مرة ولقضاتها ورئيسها مرتبات لا تساوى مرتبات ادنى مستخدم فى وظائف الانكليز ولم يبق لهم ايضا هنالك الا بعض فدادين من الاراضى

الباب الثانى

فى ذكر السفر فى نهرى باغيراتى والكنك وذكر مدن مورشداباد وراجمهال وmonغير واصطبلات مدينتى غازيبور وبوكسار ومدينة بيناريس وهيكل سرمات وصنم مدينة بيثارى المسمى لات ومدرسة بيناريس وكتب اللغة الهندية القديمة التى بخط اليد ومدينة الاهاباد ومدينة كنبور وموسم راما وسحرة الثعابين المعروفين بالحواة والكلام على الباندينية وخسوف القمر وكيفية السياحة فى بلاد الهند ومصاريف السفر

فى نهر الكنك سفن من مراكب البخار تصعد فى هذا النهر من مدينة كلكتة الى مدينة الاهاباد وفى فصل الشتاء يضطر الانسان الى ركوب نهيرات ساندربند حتى يصل الى نهر الكنك الاكبر غير أنه فى وقت الامطار يمكن للمسافر بسبب فيضان المياه أن يسلك الطريق المستقيمة التى هى طريق نهرى اوغلى وباغيراتى وفى الغالب تجد الطرق لكثرة المياه مدة نزول المطر متعطلة غير مطروقة فان مراكب الهند لا يمكنها مقاومة التيار بل لابد من انتظار هبوب الريح وهى هنالك لا تكون الا فرتونات وعواصف شديدة فاذن يكاد أن لا يكون هنالك واسطة فى صعود

نهر الكنك فى هذا الفصل الامراكب البخار فان هذا النهر لفيضان مياهه بالامطار وذوبان الثلوج تياره شديد يجذب كل ما صادفه ويتكوّن منه فروع جديدة ويمتد كالبحر ثم ينحسر فتزول به على حين غفلة قرى كثيرة وايالات وقد كان خروجى من كلكتة فى العاشر من شهر يولية فشاهدت هذه الامور المحزنة الآن شواطئ النهر فى هذا الوقت ألطف منها فى غيره فانك ترى السهول قد اتسعت واستتر وجهها بالحشائش والخضراوات النضرة وتجد بساتين الاشجار المسماة منغير والمعابد البيضاء والمساكن اللطيفة التى يسكنها زراع النيلة والمدن والقرى الواقعة على شواطئ النهر المذكور واطلالا وقرى متفرّقة ورؤوس اشجار غرقى منثورة كل ذلك ينشأ عنه مرأى متنوع ومنظر مختلف فتارة تشاهد ما تنشرح الصدور لرؤيته وتارة ماله وقع فى النفوس لعظمته واخرى ما يحزنك منظره ويسيئك مرآه ومخبره وأهم ما رأيته من المدن فى اثناء سفرى فى ذلك النهر الى مدينة بيناريس هى مدن مورشداباد وراجمهال ومونغير وباتنة ودينابور وبوكسار وغازيپور ولم اجد فى واحدة منها ما يرغب فى الاطلاع عليه من آثار الهند القديمة * فاما مورشداباد فهى مدينة اسلامية وبيوت

اهلها عبارة عن اخصاص متخذة من الاسل ونوع من الخيزران يقال له بنبوس وألطف عمارة فى هذه المدينة قصر مبنى على شكل المبانى الافرنجية بناه الناراب (وهو لقب للحاكم من حكام الهند) ولم يسكنه اصلا وكانت هذه المدينة قبل كلكتة كرسى حكومة الجمعية الانكليزية المسماة قبانية ولم يبق من رونقها القديم الاطريق لطيفة جدا على شواطئ نهر هنالك وأرصفة وهى مدينة مهمة بالنسبة للتجارة وفيها ديوان جمرك اربابه من الهنود تجمع فيه العوايد المضروبة على السياحين المارين به والعادة عندهم غالبا أن السياح لا يفتش ما معه من الامتعة والبضائع

واما مدينة راجهال ومونغير فهما واقعتان فى محل كثير الجبال والأجمات فتجد قريبا من مدينة مونغير صخور سلطانيانج على احداها بيت صنم محلى بالذهب وعلى الصخور الاخرى المجاورة لها كثير من التماثيل المنقوشة على شكل معبودات الهند وقد منعنى من رؤيتها فيضان المياه وفى جبال هاتين المدينتين الوعرة كهوف يختلى فيها عباد الاستيكنة الذين نذروا انفسهم للدعة والبطالة ويقال لهم بلسان الهند سرياغوان (اى السعداء) فتراهم لصرف اوقاتهم فى التفكرات واشتغال بالهم بالمصنوعات كأنهم فى لجج

الغفلة

الغفلة منغمسون وفى اودية الغيبوبة تائهون وشعورهم
قافة منفوشة شعثاء لعدم تعهدها وهم منبسطون من هذه
الحالة راضون بها وبالجملة فلا يتصور العقل أن فى الوجود
من يفوقهم فى صفة الكسل الذميمة التى بلغوا فيها الغاية
واما باتنة فهى مدينة ذات تجارة عظيمة وهى اعظم مخازن
الافيون وليس فى شئ من منظرها او آثارها ما يرجحها على
ما عداها من المدن الواقعة على ملتقى النهرين بانها هى المدينة
القديمة التى يقال لها باليبوترا
واما غازيبور وبوكسار ففيهما اصطبلات خيول
القمبانية الانكليزية فيربون الامهار فى بوكسار حتى تبلغ
سنتين ثم ينقلونها الى غازيبور حتى تبلغ اربعا فاذا
ارتفعت قامتها الى الحد المعين باعوا الواحدة منها بألف ربية
ومالم يبلغ منها ذلك الحد باعوه بخمسمائة وما كان فيه عيب
باعوه فى المزاد وكل فلاح أتى اليهم بحجرة لطلب النزاء كافأوه
على ذلك بخمسين ربية لكن نتاجها يكون للقمبانية واغلب
الفحول المعدة للنزاء من الخيول الانكليزية وبعضها عراب
وبذلك استغنى الانكليز عن شراء الخيل من اسواق الهند
وخيولهم جياد كرائم الا انها فى الغالب معيبة الساق
واما بيناريس فهى من مدن الهند المعتبرة وهى اعظم

مدينة يرغب فيها المتولع بآثار الهند القديمة فيجد فيها بجميع
حكايات القدماء محفوظة يرويها الخلف عن السلف وما بها من
الآثار الاسلامية آخذ فى الاضمحلال والتخرب بخلاف
الآثار الهندية فهى آخذة فى الصلاح والعمار وموارد النهر
فيها المسماة بلسانهم غات عظيمة جدّا وهى عبارة عن
سلالم متسعة ينزل عليها من الاهالى من اراد الاغتسال فى
ذلك النهر وفوقها قصور وبيوت ومساجد اسلامية وهيا كل
هندية وبيوت المدينة المعتادة مزخرفة بزخارف كثيرة وهى
عدّة طبقات فى كل طبقة منها اعمدة وفواصل وبالجملة فنظرها
على العموم يبدو لمن فى النهر من ابهج المناظر وانضرها
وفى تلك المدينة مقدار كبير من الهياكل وبيوت الاصنام
المسماة باغود وفيها ايضا تماثيل ساذجة عارية عن الزينة
يقال لها لنغاس يجلس عندها فقراء الهنود المعروفون
بالدراويش ويتراأى من حالهم انهم على غاية من الهدء
والسكون وانهم مشتغلون بحواسهم وعقولهم فى النظر
والتفكر فى شأن هذه التماثيل مع انهم متى رأوا دراهم صدقة
اسرعوا اليها وانكبوا عليها وفى المدينة ايضا كثير من البرك
والآبار المقدّسة التى يعتقدون بركتها فهى وان كانت قذرة
منتنة يأتى اليها العباد بقصد الاستحمام

وشوارعها

وشوارعها ضيقة جدًا فبعضها على جانبيه صفان من الدكاكين يوقد عليها فى المساء قناديل صغيرة وبعضها على جانبيه جدران كبيرة مظلمة لخلوها عن الشبابيك ويكثر بتلك الشوارع ازدحام الاهالى ويسمع فى سائر جهاتها قرع الطبول واصوات الطنابير والاغانى ويصادف المارّ فيها تارة مواكب دينية وتارة زفافا واعراسا واخرى امواتا يذهبون بهم الى النهر ويغنون وينثرون الازهار حولهم لاجل طرد الشياطين ولهم فى هذه الاحتفالات نشاط واعتناء عظيم حتى ان الانسان يظن انه دائما فى موسم لا ينقطع

وفى نواحى مدينة بيناريس هيكل سرمات وقد حفروا فى ارضه بقصد البحث عن الآثار فوجدوا عدة عظيمة من الاصنام محفوظة حفظا تاما ولم يزل الى الآن منها بعض اصنام متفرقة حول هذا الهيكل وهى غير محكمة الصناعة الا أن الشكل الشهير الموجود فى صور هنود البلاد العليا معروف وممتاز فيها * والهيكل مبنىّ بآجر مغطى باحجار منحوتة ضخمة تعرف باحجار الآلة وهو واقع قريبا من بركة مباركة عندهم تسمى ترثة حولها احجار يقال لها بانيان * وهنالك هيكل آخر على شكل الهيكل المتقدم ومعادل له وقد بحث فيه ايضا فلم يوجد فيه شئ

وفى الجهة الثانية من نهر الكنك تجد بمدينة رمناغار سراية رجا بيناريس اى والى هذه المدينة وهيكلا هنديا من الهياكل المتأخرة منقوشا بنقوش رديئة لاتحصى واعظم الآثار العلمية فى تلك الجهة هو الصنم المسمى لات بيشارى الواقع على البعد من مدينة بيناريس ببعض فراسخ حيث يوجد عليه كتابة منقوشة مع الاستطالة وحروفها غائرة فى الحجر جدا حتى ان من رآها على بعد ظن أنه يمكنه اخذ صورتها برسم لطيف ولكن لما كانت اطرافها قد بليت لتقادم عهدها كانت حروف الصورة المأخوذة منها غير جيدة الشكل وفى مدينة بيلات صنم آخر يسمى لات ايضا وهو من جنس المتقدم الا انه خال عن نقوش الكتابة بالكلية

ثم ان الدروس التى تقرأ فى مدرسة بيناريس السانسكريتية هى عين الدروس التى تقرأ فى مدرسة كلكته وانما الخلاف بينهما فى خصوص النحو * واللسان المتداول بين الناس بهذه المدينة مغاير للسان كلكته ولسان مأتورا وبندرابند والبراهمة يعرفون اللغة التى خصصها للديانة بريم ساغار غير انهم لا يتكلمون بها بل اغلبهم يتكلم بلغة هندستان اوردو وكثير من اشراف الهنود بل وبعض السيخية يأتون الى

بيناريس

بيناريس بقصد تأدية العبادة والنسك وبعضهم يجعل فيها
على طرفه اماما من البراهمة لاجل الصلاة
وفى تلك المدينة كثير من الكتب السانسكريتية المنسوخة
باليد حتى انه يتيسر للانسان أن يحصل فيها من تلك الكتب
أكثر مما يمكنه تحصيله فى غيرها من بلاد الهند وقد عرض
على مقدار عظيم من المتون والشروح الا أنى طلبت منهم كتب
ويدا فلم يردوا على جوابا ولم يتيسر لى أن احصل منها الا كتابا
يسمى براتى ساكيا (وهى رسالة تتعلق بكيفية النطق بتلك
الكتب) ولقلة ما عندى من الوسائط لم يتيسر لى تحصيل
كتب كثيرة وانما اتيت معى بكتاب براتى ساكيا المذكور
وبنسخة ظريفة من كتاب بغوات بورانا وكتاب وراهى
سانهيتا وكتاب بغوات جيتا وشرحه وكتاب
باربساند يسجارا وبعض رسائل فى علم النحو وثمن النسخة
الجديدة النسخ فى هذه المدينة هو الجارى فى قلقوطة
ومقداره خمسمائة شلوكة اى ربية واحدة وهذا غير ثمن
الورق الذى يدفع مستقلا قبل الشروع فى النسخ ومن سوء
الحظ أن النساخ لا يعرفون شيأ من اللغة السانسكريتية
فتجد الكتب التى ينسخونها كثيرة التحريف والغلط واما ثمن
النسخ القديمة التى صححها الباندتية فليس له حد معين بل هو

زائد زيادة مفرطة * وزيادة على ذلك اذا كان المشترى ملقبا
بلقب الصاحب اوسياحا فلا يؤمل شراءها الا باغلى ثمن
ولا يحوزها الا بعد مماطلة طويلة واما اذا فصل الثمن مع
البائع وعالجه فى تعيين مقداره فانه لا يحصل منها شيأ بل لا بدّ له
فى ذلك من الاستعانة بأحد البانديتية واتحافه بهدية ولا بدّ له
ايضا أن يقصد فى ذلك رجلا من المعتبرين فان الثمن يدفع
قبل قبض المبيع ويكون المشترى بعد ذلك على خطر
فى حيازة ما اشتراه وقد استصحبت معى مدرس الهيئة
بالمدرسة المتقدمة وكان قد أحضره الىّ بعض لطفاء الضباط
فكان هذا المدرس يصحبنى ايما توجهت لانه كان
يرى كبار حكام مدينة بيناريس يقابلونى بالترحيب
والاكرام
واما مدينة ألاهاباد فهى واقعة فى ملتقى نهرى الكنك
وبومنا الذى يشرف عليه حصن عجيب ويعتقد الهنود
أن هنالك نهرا ثالثا يجرى تحت الارض يسمى نهير ساراسواتى
ويزعمون أن هذا المحل اعظم البرياغاس قدساوبركة
(والبرياغاس اسم للاماكن المقدسة الواقعة فى ملتقى النهرين
المذكورين) فترى الناس يأتون الى هذا المحل افواجا
للاغتسال والحلق ويعتقدون أن كل شعرة سقطت فى الماء

علامة على أن صاحبها يمكث فى الجنة ألوفا من السنين وكانت حبانية الانكليز أولا تأخذ عوايد من الزوار تضربها عليهم ثم ابطلتها نظرا الى أن ذلك مما يخل بالمروءة ومكارم الاخلاق اذ ليس ذلك الا مغرما مضروبا على ارباب الاوهام الفاسدة والعقائد الكاسدة * وتجد تحت حصن ألاهاباد فى كهوف مستطيلة اصناما يسمونها لانغاس وتماثيل على صورة الآلهة المعروفة باسم پاروانى وفى صحن هذا الحصن صنم يقال له لات وهو ملقى على الارض وعليه من الكتابة نقوش كثيرة لا يمكن اخذ صورتها

وبالجملة فمدينتا ألاهاباد و بيناريس هما محلان تحجهما الهنود ولا يوجد فى ألاهاباد شئ من الآثار القديمة الغريبة ولا شك أن الاسس المتينة التى بنيت عليها بيوت هذه المدينة كانت سابقا عليها مبان عظيمة ولا ترى عليها الآن الا اخصاصا رديئة مبنية بالطين * وفى المدينة قبر عظيم حوله بستان وخان ظريف * ويتعجب الانسان من كون هذه المدينة واقعة موقعا حسنا فى ملتقى نهرين عظيمين ولم تكتسب اهمية زيادة عما هى عليه الآن

وقد فاض نهر الكنك حين كنت بهذه المدينة فيضانا غريبا حتى تقطعت جسوره وانصبت مياهه فى نهر يومنا

من خلال السهول التى تفصل الحصن من المدينة فصار هذا
الحصن كالجزيرة وانهدم السور العظيم الذى على نهر يومنا
وكان هذا آخر حادثة من حوادث التخريب التى كنت
أشاهدها منذ شهرين

وبينما كنت اتنزه فى اكناف تلك المدينة اذ ضللت عن
الطريق فسألت رجلا من الاهالى وقلت له ما هذا النهر الذى
يجرى أمامى فأجابنى بأنه نهر الكنك فسألته ثانيا لأتحقق
من معرفة الطريق وقلت له اوليس هذا نهر يومنا فاجابنى
قائلا انه يصير نهر يومنا لو أراد ذلك الصاحب وانما ذكرت
هذه العبارة لتكون شاهدا على عبودية اهل تلك البلاد
واسترقاقهم وعلى انه يعسر على المستفهم غالبا أن يجاب
عما استفهم عنه باجوبة صحيحة فانهم يقصدون بجواب
اسهل الاسئلة معنى خفيا ولا يخطر ببالهم أن السائل
له رغبة فى الاستفادة عن سؤاله بالتفاصيل التى تظهر لهم
انها مستهجنة مبتذلة بل يرون أن اجابته بما يظنون انه
يحبه ويسره اولى من اجابته بالحقيقة فعلى الانسان أن لا يثق
باخبارهم ولا يعتمد على افاداتهم الحالية بل يلزمه
أن يستصحب معه احد المعتبرين منهم ليستفيد منه اخبارا
صحيحة يوثق بها

واما مدينة كنبور فهى اعظم المدن بعد ألاهاباد وفيها بعض آثار من آثار القرون المتاخرة غير مرغوبة وهى من المحطات الواسعة العسكرية والمنازل المستحسنة الهندية من حيث كونها محلا للحظوظ واجتماع المؤانسة وفيها تياتر وموقعها ردىء كأكنافها وان كان نهر الكنك يرويها واراضى هذا القطر مسطوحة جدا فلا يزال الانسان فيها محاطا بالاعاصير والزوابع

وعلى البعد من مدينة كنبور ببعض فراسخ محل يزعم الهنود أنه مركز الارض فتراهم فى شهر اوقطوبر يعملون فيه مواسم عظيمة غير أنى لم يتيسر لى حضورها وانما رأيت مدة اقامتى بهذه المدينة موسم قتل الاخوين المسميين راما للعملاق المسمى روانا باعانة القردة لهما على قتله وكان الهنود اولا يلقون فى نهر الكنك بعد انقضاء هذا الموسم الشابين المنتخبين من اولاد الاعيان اللذين كانا ينوبان فى الموسم المذكور عن الاخوين المذكورين معتقدين انهما بتلك النيابة صارا مطهرين من دنس الذنوب فلم يبقوهما على قيد الحياة لئلا يكونا عرضة لاقتراف الخطايا ثانيا واما الآن فليس ثم قاطع بانهم اقلعوا عن هذه الفعلة الشنيعة الناشئة عن اوهامهم الفاسدة والذى اراه أن الانكليز

لا يفضى بهم الترخيص فى الامور الدينية الى أن يقرّوا هذا
الامر الفظيع ويغضوا عنه و ينوب فى الموسم المذكور
عن العملاق المسمى روانا تمثال هائل محشوّ بنيران صناعية
وحرائق بارودية يحرق بها هذا التمثال * وصورة ذلك الموسم
أن الشابين الناسبين عن الاخوين المسميين راما يأتيان
وعليهما ملابس فاخرة فى عربة يجرّها ثوران وكل منهما قابض
بيده على قوس وعلى كتفه جعبة وبكتنف العربة اناس
متزيون بزى القردة يصيحون صياح الفرح والمسرّة حتى يسمع
لاصواتهم فى الجو دوى عظيم ثم يهجمون على التمثال ويرمونه
بالحرائق من كل جانب وهو موسم عظيم مستحسن عند
الاهالى وهم وان كانوا فى طرب وعربدة من السكر وسماع
الغناء فى الموسم الا انهم لا يزالون محافظين على احترام
من حضر من الفرنج للفرجة على ذلك الموسم
ورايت فى تلك المدينة ايضا حواة الثعابين قد قبضوا على
ثلاثة منها أمامنا بواسطة تصفيرهم بآلة اشبه صوتا بالمزمار
فان تأخرت الثعابين عن الحضور اليهم اخذوا فى السب
واللعن وقرؤا عليها عزائم وكلمات شعوذية ومهما ابداه
الانسان من الاحتراسات فى التحرّز من غشهم وما يخيل له
من فعلهم رأى منهم كيفية غريبة جدّا حتى يعتقد انه غير

مغشوش وأن شعبذتهم صحيحة فانهم يجردون عن ثيابهم
ويعين لهم المحل الذى تتلى فيه العزيمة لاجل اخراج الثعابين
ومتى قرؤها خرجت لامحالة * والثعابين هنالك تأوى الى
اصحن الدور بل والى داخل الاماكن ويقال ان نساء الهند
يؤلفنها حتى تأنس بهن ويتخذنها صواحب فى خلوتهن
وحكثهن مقصورات فى البيوت * ومن تلك الثعابين
مايسمونه كوبرا وهوا كثرها اشكرا للصنيع مع انه
اشدها خطرا واعظمها ضررا ويألف الموسيقى فتراه عند
سماع صوت المزمار يرقص على حركاته مراعيا ألحان
نغماته وا كثرما تكون الثعابين والعقارب على امتداد اسفل
الجدران فلذا ترى من اقام ببلاد الهند عدة سنين يتحاشى
عن المشى بحذاء تلك الجدران حتى كأنه طبع على كراهة
ذلك والثعابين المذكورة تفرمن الناس ولكن ذلك لاينقص
من خطرها شيأ ويصادفها الانسان فى كل مكان فيجدها
فى الغيطان والطرق والردم والاطلال واذا اضطرت الى
الخروج من اجحارها التفت على بعضها وعندما تحس بأدنى
حركة تمتد لاجل اللدغ واما الثعبان المسمى كوبرا فيبسط
فنبرته ويقوم ملتفا على شكل دائرة ثم يلقى برأسه الى الارض
وهو بطىء الحركة جدا بحيث يسهل التحرزمنه واذا اتفق

أن انسانا مس ثعبانا سهوا التفت اليه حالا ليلدغه وقد اتفق لى انى كنت أتريض فى مزرعة نيلة محصودة فوطئت ثعبانا فالتفت الى ليلدغنى وكان مشتبكا بحزمة من النيلة فلم تصب لدغته الا سراويلى فجردت السيف وقطعته فاذا هو حية حبلى وقد اشتهر هنالك أن لدغ الحيات ولو كانت من ذوات السم لا خطر فيه

ثم ان قطر ألاهاباد هو جزء من الهندستان الاصلية وارضه خصبة جدا وزراعته جيدة فيما حول القرى والعيش فيه رخى والاسواق مستكملة اللوازم مع الانتظام وعلى البعد من القرى ترى ارضا بورا متسعة وهى مايسمونه جنجل واكثر هذه الاراضى قابل للخصوبة الجيدة لولا ضعف الفلاحين وعدم تجاسرهم على التباعد عن قراهم خوفا من قطاع الطريق المتسلحين المسمين بلسانهم دكوات ومن الوحوش المفترسة

ولا يرخص هنالك للفرنج فى تملك الاراضى ويلزم لزراعة النيلة اراض متسعة وفلاحوا الهنود يؤاجرون اراضيهم لزراع النيلة سنة اوسنتين وربما آجروا ارضا واحدة لزراعين فيقع بينهما عند الحصاد نزاع قد يفضى بهما الى القتال واكثر ما يكون ذلك فى بلاد يسورة .

وفى هذه البلاد يصنع السكر وملح البارود والافيون بكثرة وقبانية الانكليز تحتكر الافيون وتستبد به وهو من اعظم فروع الايرادات الهندية

وحيث ان الخرطال لا يزرع عندهم سد الجلبان مسده فى علف الخيل ويجمعون الحشائش من الاراضى المسماة جنجل وفى بلاد بنجالة السفلى يزرع الارز بكثرة بخلاف اقليم الاهاباد الذى هو دونها فى الرى فان اكثر ما يزرع فيه القمح والشعير والدخن

وفى اكناف مدينة باتنة يزرع كثير من البطاطس وغيره من النباتات ذوات الجذور والبقول المعروفة فى بلاد اوروبا وجميع بساتينهم لا تخلو عن زراعة ذلك

والخيول الهندية هى صنف صغير الجسم شديد العزم ولا تحتاج للتعهد والخدمة وكذلك صنف البقر فى تلك البلاد فهو أيضا صغير الجسم جدا ولونه سنجابى وهنالك جاموس كثير يعتقد الهنود بركته وكذلك الثيران ويمنع فى القرى المنعزلة عن غيرها اكل لحم البقر * وأغنامهم فى الغالب سوداء وصوفها ردىء * وخنازيرهم السود التى تأتى اقاطيع اقاطيع لتترغ فى قاذورات القرى ينفر منها الفرنج كما ينفر منها المسلمون * والكلاب تعيش مهملة فى المدن والقرى

وتذهب غالبا الى النهر لتأكل ما يرسو على شاطئه من الرمم فيعتريها بذلك داء الكلب

واما الابل فانها لا تكاد توجد في هذا الجزء من بلاد الهند لان جميع الاحمال انما تنقل في السفن بل توجد فيه الافيال التي هي في بلاد الهند من علامات الثروة والشوكة لمن حازها.

والطرق في الغالب ظريفة جدا ومعتني بشأنها واصلاحها مع صعوبة ذلك عليهم بما يطرأ عليها من الفساد الناشئ عن كثرة الامطار التي تعقب فصل الحرارة واليبوسة ويستخدمون في اصلاحها من حكم عليهم بالليمان وقد يصادف الانسان منهم طوائف كبيرة لا يصحبها في قيادتها وحرسها الا رجلان او ثلاثة ومن الغريب أنهم مع ذلك لا يسعون في الهروب فيلزم أن يكون عدم سعيهم في الفرار انما هو لما استولى على قلوبهم من الرعب والخوف من الحاكم الانكليزي فلذا تراهم متى شاهدوا رجلا من الافرنج حيوه بوضع ايديهم على جباههم

وفي مدن الهند تجد الضباط والمستخدمين في الخدم الملكية يسكنون بيوتا بعيدة عن المدينة لها طبقة واحدة ارضية وهي مستورة بالقش والحفافة وارضيتها مصنوعة من مواد

ترابيه

ترابية صلبة كأرض الجرين وسقفها مستور من داخله بقماش ابيض وسطحها مستور بالقش وبناؤها خفيف فلذا كانت تخربها الامطار والنمل الابيض فى اسرع وقت فهى دائما محتاجة الى الترميم والاصلاح * واما بيوت المدينة فهى فى الغالب مبنية بالآجر والحجارة وأعظمها يشتمل على عدة طبقات وعلى صحن فيه ماء لاجل جلب الرطوبة الى داخل المنزل * ويرى حول البيوت الظريفة بل وفى جميع المدينة كومات قمامات قذرة وحفر مياه منتنة

وفى كل قرية من القرى سوق مستمر لا ينقطع منه البيع والشراء وخان ينزله السياحون وبعض تلك الخانات لطيف جدا وقد احدثت الانكليز وبعض اغنياء الهنود خانات صغيرة يأوى اليها السياحون وللسياح أن يمكث فيها اربعا وعشرين ساعة فان اتى بعد هذه المدة سياح آخر وجب على الاول أن يترك له محله وهذه الخانات الصغيرة على غاية من القلة والاحتياج الى لوازم التنظيم وادواته وهى فى الغالب واقعة موقعا رديئا بعيدا عن القرى والاسواق ولكن ليس فى ذلك كبير ضرر على السياح لانه فى العادة يستصحب معه ادوات السفر من خيمة وغيرها فاعظم نفع هذه الخانات انما هو بالنسبة للسياحين الذين يسافرون فى الدالك

(وهو تختروان يحمله الرجال على ظهورهم) وفى كل قرية حاكم للضبط يسمونه ثانادار يعطى الخفر للسياحين فى مدة الليل وهؤلاء الحرس فى الغالب لصوص ولولا التجاء السياح اليهم لطلب الحراسة والخفر لسرقوا امتعته بلا محالة وليس بين القرى من العلائق والروابط الا القليل لان اهلها اما هنود اومسلمون اوهما جميعا وهو الغالب واذا كان اهل القرية هنودا فلسانهم يقارب اللغة السانسكريتية وان كانوا مسلمين فلسانهم يشابه اللغة الفارسية ومن عادة المسلمين قرى الضيف واكرامه بخلاف الهنود فانهم لا يضاهونهم فى هذه الخصلة الحميدة وذلك ان لم يكن فيهم بالطبع والغريزة فهو ناشئ عن اوهامهم الفاسدة التى تمنعهم من اكرام الغرباء وخدمتهم ولا تبيح لهم أن يعيروهم شيأ من الادوات المنزلية من آنية طبخ وغيرها

ولا تخلو كل قرية عن البانديتية ولو واحدا وهم مجردون عن المعارف وليس عندهم من الكتب الا كتاب يسمونه ألمناخ وهو عبارة عن الزيجات والتقاويم ويظهرون للناس أنهم يقرؤن فيه مع أنهم انما يقرؤن شيأ آخر من محفوظاتهم فافهمتهم أنى عارف حقيقة الحال وانى لم اغتر بهذه الحيلة فاخذوا يضحكون من ذلك ولكن ليس عندهم دعوى ولا تكبر

ولا يوجد

ولا يوجد فى خارج المدن الكبيرة احد من البراهمة ارباب المعارف الا فى اواسط العساكر الهندية حيث رتبت فيها قبانية الانكليز واعطا منهم ليعلمهم الصلاة ويحرضهم عليها
وقد اتفق ذات ليلة أن القمر خسف فسمعت شخصا من البراهمة يتلو دعاء فالححت عليه كل الالحاح أن يخبرنى بهذا الدعاء فما سمحت نفسه بذلك وبعد أن فرغ من دعائه اخذ يقص على الحاضرين بدون تعقل ولا روية سيرة راهو الشهير الذى تتبع القمر قاصدا افتراسه انتقاما منه على كونه فضحه حين كان يسرق الطعام من ويكنو وكان هذا البانديتى على معارف كافية فكان يعرف خسوف القمر قبل حصوله فان علماء الهيئة من الهنود يحسبون اوقات الخسوف حسابا صحيحا والظاهر أنهم يعتقدون صحة خرافاتهم فتراهم عند حصول حادثة من الحوادث العلوية تلحقهم الحيرة والقلق لفساد أوهامهم وسوء عقيدتهم كالعامة فيعتقدون أن القمر يحل به وقت الخسوف شدة وضنك عظيم فترى كلا من الهنود والمسلمين يجثون على ركبهم ويبتهلون بالدعاء والتضرع لكن الهنود يقصدون بذلك التعجيل بانقاذ القمر من هذه الشدة والمسلمون يقصدون التحصن من ضرر الخسوف الذى هو علامة السخط والغضب

وماذكرناه لك على وجه الاختصار فى تخطيط هذه البلاد يمكن أن تعرف به سهولة السياحة هنالك فان ادوات النقلة متنوعة حيث تجد المراكب البخارية او السفن العادية لركوب نهر الكنك والصعود بها فيه ولكن الثانية هى الاليق بالمسافر الذى يريد الخروج على المدن ويحب معاينة البلاد وانما ينبغى له أن لا يسافر فى زمن فيضان مياه هذا النهر وتجد ايضا الدالك اوالتختروانات التى يحملها الرجال على ظهورهم ومسافة ماتقطعه هذه التختروانات ليلا ونهارا خمسة عشر فرسخا فصاعدا الى عشرين والسفر فيها لا يلايم الامن اراد النقلة من محل الى آخر بسرعة لان هذه الطريقة متعبة وثقيلة على المسافر وكثيرة الكلف والمصاريف ولا يمكن لمن استعملها أن يقف فى الطريق لرؤية البلاد * وللسياح ايضا أن يقطع المراحل الصغيرة فى التختروانات اوعلى الخيل وينزل فى خيمة اوخان من الخانات * واهل اوروبا لم يتعودوا على نزول الخانات بل ينقلون معهم خيامهم واثقالهم وبالجملة فالمسافر مخير فيما يلايمه من وسائط السفر المذكورة وركوب الماء فى اقليم بنجالة هو الانسب بالمسافر فان البلاد والولايات الواقعة على شواطئ نهر الكنك يرغب فى رؤيتها والاطلاع عليها ومبدأ السفر بالخيم مدينة الاهاباد

واعظم

وأعظم الخيام مايصنع فى مدينة فتاحبور الواقعة بين مدينتى الاهاباد وكنبور ويصنع منها ايضا كثير فى المدن الاخرى

وأهبة السفر المعتادة فرس ورجلان لخدمة المسافر احدهما يذهب للمحاقل الغير المزروعة ليجمع منها الحشائش ويقدمها للفرس ومن لوازم المسافر ايضا طباخ ومساعد لانه بمجرّد احضار الغداء تاتى الحداه والاغربة والكلاب من جميع الجهات لتختطف ماعلى المائدة متى وجدت ادنى غفلة واهمال ومن لوازمه ايضا رجل لحفظ الامتعة والاثقال وميتور اى كاس وبستى اى سقاء ودهوبى اى غسال وفراش لنصب الخيمة وكل واحد منهم لايؤدى الاخدمته المنوط بها وكذلك جمل لحمل الخيمة الصغيرة وعدة جمال اوعربة لنقل الامتعة والاثقال * والابل اسرع فى السير من غيرها ولا يخشى معها بلل على ماتحمله من الامتعة عند عبور الانهر الصغيرة واذا اراد المسافر اخذ شئ من التصاوير والرسوم لزم له مساعد يعينه على هذا العمل والانفع له أن يستصحب منشئا اى كاتب سر من الفرس وبانديتيا يعلمه ألسنة البلاد لاسيما اذا اراد السياحة فى بلاد الهند بقصد الاطلاع على آثارها القديمة ومعرفة آدابها فان هذا الباندیتی

هو الذى يدله على الاماكن والآثار الشهيرة المرغوبة ويترجم بينه وبين اصحابه من الهنود واما المنشئ فلابدله منه فى البلاد القائمة بنفسها لضرورة المراسلة الى رؤسائها من الهنود ومكاتبتهم عند الحاجة ولابدله ايضا من الحرس مدة الليل والاسرقت امتعته بلا محالة

ولنذكر هنا مصاريف السياحة على سبيل الاقتصاد والتوسط فنقول

	ربية
مصاريف الجمل فى الشهر	١٠
الجمال	٤
عربة تجرها ثلاثة اثوار	٣٠
امين الامتعة والملابس	٨
الطباخ ومساعده	١٥
الكناس	٥
السقاء	٤
الفراش	٦
الكولى (وهو الرقيق)	٦
خفر الليل	٨
السائس	٥
الجاسكوت (وهو نوع من الخدم)	٤

الغسال

الغسال	٩
الباندىّ	٥٠
المنشئ	٣٠
	١٩٤

وقد يستغنى المسافر عن الجمع بين الباندىّ والمنشئ واذا زدنا على تلك المصاريف مصاريف الدليل ونحوها من المصاريف الهينة فربما بلغ مجموع مصاريف الخدم الشهرية نحو مائتى ربية اى خمسمائة فرنك واذا آثر المسافر ركوب التختروان على ركوب الخيل دفع فى كل شهر مصاريف حامليها ثمانين ربية اى مائتى فرنك وركوب التختروانات فيه ابهة ورونق الآن مصاريفه اكثر من غيره

والاقوات فى تلك البلاد رخيصة جدا ففى جميع الاماكن الطيور الدواجن والارز واللبن والبيض والدقيق * ولا بد للانسان هنالك من طقم سفرة فيه نوع زخرفة ورفاهية فان العادة فى تلك البلاد أن الانسان اذا دعى للغداء عند جماعة استصحب معه السكين والشوكة والملعقة والصحاف وحق الفلفل والملح لان ضرورة الانتقال وكثرة الارتحال حملت الانكليز على التعوّد والعمل بهذه العادة المستحسنة التى تذهب عنهم الحيرة وتوفر عليهم المصاريف

واذا اراد المسافر الاقتصاد فى المصاريف بحيث لايغرم مصرفا المنشئ ولاپاندیتی ولاغیرهما ممن يستعين بهم على الاطلاع على تلك البلاد ومعرفة احوالهم ينل ذلك الا وقد اضر بنفسه من حيث مايصل اليه فى هذا المعنى من الاخبار حيث لايخرج من ذلك على خبر صحيح يعتمد عليه واما ماعدا ذلك من المصاريف فهو امر عادى فالاوفق بالانسان أن يسلك فى ذلك المسلك الجارى بين الناس ولايسلك فى معيشته مسلكا يخصه على حدته فان ذلك يوقعه فى الحيرة دائما و يضيع عليه الزمن وايضا اذالم يسلك مسلك عموم الناس لم يعتبر عندهم اعتبار الصاحب اى لم يعدوه من السادات والاعيان بل الظاهر أنهم لايمكنونه من السياحة فى البلاد المستقلة بحكم نفسها الا اذا استأذن الحكومة الانكليزية والحكومة الهندية وصدور الاذن متوقف على حسن هيئة المستأذن بحيث يكون دائما على هيئة تقضى بأنه من ارباب الشرف والاعتبار

وبالجملة فالذى اوصى به السياح أن يتبصر ويدقق النظر فى شأن مصاريف السياحة ولايغتر بالتوهمات الباطلة التى يبديهاله فى هذا المعنى اناس لم يسافروا الى تلك البلاد حقيقة وانما ذلك منهم بمجرد وهم وتخيل وان كانوا فى الواقع

ونفس

ونفس الامر من ذوى الاعتبار والوقار

(الباب الثالث)

فى الكلام على مدينة اغرا والمدفن المسمى تاجهال وحصن اغرا ومدرستها ومدينتى ماثورا وبندرابند وكريشنا واللبانات والقردة وغات بندرابند وهياكلها والاموات المطروحة فى الازقة وقراءة اللسان السانسكريتى وصعوبة تحصيل الشخوص المسماة مداليه والنقوش المرسومة على ألواح النحاس وعلى مدن ديج وبورتبور وغداوند وفتاحبورسكرى وعلى المنظر العام للبلاد المجاورة لمدينة اغرا وكيفية البناء والتصوير والنقش عند الهنود وعلى مدينة قانوجة ومن بهامن البراهمة وبائعى المربات وعلى المداليات الكاذبة

لما انقضى فصل الامطار وانتهى فيضان الماء شرعت فى السفر ثانيا فخرجت من مدينة كنبور فى اواخر اوقطوبر بعد أن اقمت عدة اسابيع فى ضيافة بعض اصحابى ممن ركبت معه البحر سابقا وعادت ضيافته على بالمنفعة فرأيت منظر ما بين مدينتى كنبور و اغرا من البلاد قد تغير دفعة واحدة فلم ار هنالك مايضاهى سهول بنجالة الانيقة ولا جبال راجمهال و مونغير و مرزابور ذات الغابات ولا المدن

والقرى التى تكتنفها اجمات النخيل واشجار الموز ولا اخصاص الهنود الصغيرة المتخذة من ضفائر الخيزران المغطاة بالنباتات والازهار التى تعلو وتلتف عليها بل وجدت القرى فى تلك الجهة قليلة والبيوت مبنية بالطين وفى كل وقت يصادف السائر فيها رمالا واراضى متسعة لا ينبت فيها الا العاقول ووصلت الى مدينة اغرا وقت الاصيل عند غروب الشمس فكان اول ما وقع عليه بصرى هو التاجهال فلمحته من بعد ونصفه محجوب بالابخرة الجوية وهو عبارة عن مدفن شيده الشاه جهان تذكارا لاحدى زوجاته وهو واقع على شواطئ نهر جمنا وفيه منارات عالية تشرف على ما حوله من البلاد التى هى عبارة عن اطلال ومقابر يظن الناظر أن ارضها انقلبت وتخربت ويكتنف هذا المدفن مسجد وبستان جيد الغراس وخان معد لنزول السياحين فيه مجانا وجميع مقابر اعيان الهند بهذه المثابة فهى جامعة لطرف من الفنون والديانة والظرافة والنفع العام وليست كما تلهج به الالسن دائما انها آثار مباهاة ومفاخرة غير نافعة * وطرق البستان وماشيه مبلطة بالاحجار المتينة وفى وسطه فسقية ذات نافورات تقذف الماء فى كل يوم احد وبناء المدفن من الرخام الابيض * والمقابر وكذلك بعض

الجدران مزخرفة بقطع احجار متناسبة مختلفة الالوان على صورة ازهار مخترعة وبالجملة فاجزاء هذا المحل كمجموعه على غاية من اللطف والظرافة

ومدفن الشاه اكبر فى مدينة سكندرة واقع على البعد من اغرا بفرسخين وهو دون الاول فى الظرافة ويشتمل ايضا على بستان وخان ومن صعد على اعلاه رأى حوله من الخراب فضاء واسعا يبلغ مدى بصره

والانكليز يعملون اعظم مواسمهم فى هذين المدفنين ويجمعون فيهما جميع من كان بمدينة اغرا من الفرنج وفى عمل هذه المواسم بجوار المدفنين اسوة باهل المشرق فى اخلاقهم وعوايدهم حيث يميلون الى مزج حظوظهم ومسراتهم بما يبعثهم على الاتعاظ والتفكر فى فناء العالم وزوال الدنيا ولكن يبعد أن اصحاب هذه المواسم فى اوقات المسرة والخلاعة يتفكرون فى غير مسراتهم وفكاهتهم

وغير هذا المدفن من المحال الشهيرة بمدينة اغرا هو المحل المسمى موتى موجديد ومدفن ايتمادايددولي المزخرف بتصاوير مخترعة مصنوعة من قطع احجار متناسبة مختلفة الالوان والحصن الذى كان دار اقامة الملك على حسب عوايد هذه البلاد واما كن هذا الحصن على غاية من الحفظ

وفى داخله صحن مربع يشتمل على مسجد من الرخام الابيض وقاعة حمامه المعدّ للنساء هى موضع مستور عن الاعين يصعب الدخول فيه وهى مزينة بمرآة صغيرة ذات اوجه عديدة وضعت هنالك لتنعكس فيها صور من اغتسل فى ذلك الحمام من النساء الحسان ولا يدرى هل كان الشاه يحضر معهن وقت فكاهتهن ومسرتهن ام لا والحارس اخرس بالكلية وليس فى المدينة من المبانى ماله وقع فى النفس كهذا الحصن الا القليل سواء كان ذلك بالنظر الى داخله اوخارجه وهذا الحصن وان كان يظهر أنه حصين منيع الا انه بحسب الظن لا يمنع عساكر الفرنج من التغلب والهجوم عليه فقد استولى عليه سنة ١٨٠٣ من الميلاد اللورد لاك من غير أن يكابد فى ذلك مقاومة ولا معارضة غير أنه لسوء حظه اتلفت كلل المدافع جدرانه اللطيفة وقبابه المذهبة

وفى مدينة اغرا ايضا مدرسة يتعلم فيها اللسان السانسكريتى والعربى والفارسى والانكليزى وقد اخبرنى مديرها أن هذه المدرسة السانسكريتية من الاحداثات الرديئة والترتيبات القبيحة لان كل من خرج منها انما يستعمل ما حصله فيها من المعارف فى اغواء الجهلة واضلالهم ولعله يشير بذلك الى

الشعبذيات

الشعبذيات المأذون بها للبراهمة ليستريحوا من كيد اعدائهم ولا اعداء لهؤلاء البراهمة الامن لم يوفهم ما اوجبته لهم الشرائع من وجوه البر والاعانة ومنشأ ذلك انما هو الترتيب لا الناس * والتلامذة هنالك يحرضون على تعليم الانكليزى والفارسية لانهم بمعرفة هذين اللسانين يتمكنون من التقلد بوظيفة من الوظائف الانكليزية

ومدينة اغرا كلها اسلام لا يوجد فيها شىء من آثار الهند الشهيرة ولكن اذا سافر الانسان منها مسافة يوم وصل الى ماثورا و بندرابند وهما مدينتان معدتان لتعليم الآداب والاخلاق القديمة وكل شىء فيها سادجى باق على اصل الطبيعة اكثر مما فى مدينة بنارس فانهما كانتا محلا للحوادث التى وقعت من ويشنو فى صغره حين تشكل باحد تشكلاته الذى كان يسمى فيه باسم كريشنا (وهو من آلهة الهنود الخرافية وتشكلاته تسع مذكورة فى كتب الميثولوجيا) فله فى المدينتين عبادة مخصوصة واهلهما يشهرون وقائعه العشقية والحربية بانشادها والترنم بها وعقد المواسم لها ويطلعون السياحين هنالك على المورد المسمى غات الذى قتل فيه ويشنو الثعبان وعلى الشجرة التى كان يزمر فيها بالمزمار وكذلك الشجرة التى خبأ فيها

ثياب اللبانات * وبعض البراهمة يحكي هذه القصة فيقول
ان ويشنو انقض فجأة على اللبانات وكن يغتسلن في الماء
واخذ ثيابهن وصعد بها على شجرة وواراها فيها فدنا منه هؤلاء
المسكينات وسألنه في الثياب فطلب منهن أن يخرجن من الماء
فلما خرجن وأردن أن يسترن عوراتهن بايديهن ألزمهن أن
يضعنها فوق صدورهن على هيئة الصليب وقد يبست هذه
الشجرة التي كان يتذكر بها تلك الحادثة ويوجد في اغصانها
اليابسة اشرطة مختلفة الالوان معلقة عليها دالة على ثياب
هؤلاء اللبانات

ومافي مدينة بندرابند من الموارد المسماة غات
على غاية من اللطف فان اغلبها مسقوف وانفراجاتها المطلة
على النهر منحوتة على شكل قباب وفواصل مسندة على اعمدة
وهي محصنة القصور صغيرة تعرف بالكوچكات ومظللة
باشجار كبيرة من شجر البانيان ومنتزهاتها انيقة تشرح الصدر
وعلى شاطئ النهر محل كانوا يطعمون فيه القردة بما رتبه لها
احد العباد وقد وجدته عند الاوبة مغلوقا الان فتور الحمية
في الديانة يسري في سائر المحال * والقردة هنالك تملأ الاشجار
وسطوح البيوت حتى انهم في ايام البلح يضطرون الى اقامة
الحرس لحفظ النخيل لما أن هذه القرود متعودة على الاستلاب

والاختطاف

والاختطاف حتى انه يشق على الانسان أن يحمي غداءه من
هجومها عليه بل لا بد له من مجانبة اذيتها ولو بادنى ضرر
فقد اتفق ذات يوم أن رجلين من الضباط قتلا قردا فاشتد
غضب الاهالى عليهما وارادوا الفتك بهما فما كان منهما
الا انهما ركبا فيلا وقصدا أن يجتازا به نهر يومنا لكن
ادركتهما المنية فغرقا فيه واهل المدينة يحكون فى ذلك
حكاية غريبة فيقولون ان القرود نفسها هجمت عليهما
فاهلكت الراكب والمركوب والانوار التى يعتقدون بركتها
كثيرة هنالك حتى انها تسد الازقة والحارات وغذاؤها
من حبوب باءى الغلال فتدخل رؤسها فى قففهم لتأكل منها
ولا تبالى بضربهم لها وبعضهم يتركها تأكل من حبوبه آمنة
مطمئنة معتقدين أن عدم طردها مما يستوجب الاجر
والثواب والسلاحف كثيرة فى النهر ويطرح لها الاهالى فيه
ما تقتات به وبالجملة فالثيران والقردة والطواويس والحمام
والديوك مقدسة عندهم يعتقدون بركتها فلا يذبحون منها
شيأ وقد اتفق انى كنت امشى فى بعض الازقة اذ نظرت امرا
مهولا وكان ذلك فى فصل الخريف وقت حصاد الدخن وهو
انه كان قد وقع فى المدينة منذ يسير قحط ومجاعة حتى صار
الفقراء يأكلون الدخن مع الافراط والشراهة فنشأ عن ذلك

حمى قاتلة فرأيت بعض المصابين بها فى النزاع وبعضهم قد هلك ورأيت الناس يمرّون من جانبهم ولا يلتفتون اليهم حتى اخذت الكلاب تأكل واحدا منهم ومن عوايدهم أن الميت لا يدنو منه الاقاربه الادنون وطائفة من الرعاع السفلة معتدة لحمل الاموات

وفى مدينة بندرابند زيادة على ما فيها من الغابات (اى الموارد) هيكلان ظريفان جدّا مبنيان باحجار لونها كلون الورد أحدهما على شكل الصليب اليونانى وهو أغرب آثار العمارات الهندية وتجد فقراء الهنود يجتمعون حول الهياكل ويقرؤن عندها باعلى اصواتهم مع نوع غناء وترنم وبقطع النظر عن ذلك وعن تطويل وقفهم على حروف الغنة لا يظهر فى نطقهم مخالفة للنطق المعتاد فى مدارس فرانسا الكبيرة وعند سماعهم يدرك الانسان أن ما يقرؤنه موزون متناسق * وليس الامر كذلك فى مدينتى كلكتة وبنارس ولما كان الفقراء المعروفون بالدراويش لا يتكلمون الا نادرا وقل أن فهموا ما يقرؤنه وكان الاولى أن يقال ان قراءتهم انما هى من محفوظاتهم ومن الآثار التى يرويها الخلف عن السلف شفاها الا أنهم يقرؤن فيما بايديهم من الكتب كان الظاهر أن ما يسمع منهم هو النطق الطبيعى

الحالى

الخالى عن التصنع وقد تحيلت فى تحصيل كتاب من الكتب الصغيرة التى يقرؤن فيها فوجدته لا معنى له بالكلية

والنطق باللسان السانسكريتى يختلف باختلاف البلاد ولكنه يتحد فى مدة الوقف على حروف الغنة وسبب الوقف بهذه المثابة على تلك الحروف القليلة الترنم هو فى غاية الوضوح لمن عرف صعوبة العثور على الكلمات المحرفة عن اصلها بسبب قواعد اللغة الجديدة المسماة ساندى فاذا اراد الخوجة أن يظهر عدم الحيرة فى القراءة جعل لنفسه فسحة يسبر فيها الكلمات ليحزر المحرف منها وبعد عثوره عليها يسرع القراءة حتى يصادف حرفا آخر من حروف الغنة فيقف عليه ثانيا وهذه الطريقة الغريبة فى القراءة تضر ضررا عظيما بمحاسن الاشعار السانسكريتية اللطيفة فلذا كان الباندينية الذين هم المعلمون للسان السانسكريتى اذا عرفوا من قبل قطعة من الشعر حرروها وافرغوها فى قالب حسن مقبول حتى يزول عنها عيب النظم ورداءة التركيب

وكان عندى فى شأن مدينة ماثورا اخبار تخصها فلذا اعتنيت بملاحظة منظرها واكنافها فاذا بلادها كثيرة الرمال وتفيض عليها المياه فى فصل الامطار حتى تكاد تعمها وتجد حول المدينة كيمانا من الآجر وليس هنالك شئ من الآثار

والرسوم المهمة وقد بحثت عن القطع المسماة مدالية فلم افز
منها بشئ بخلاف الانكليز فان كثيرا منهم يجمعون منها
جملا عظيمة لان السياح الذى يمرّ بالبلاد بمجرد مرور لا يتأتى له
أن يطمع فى مضاهاتهم بحيث يكون عنده من الوسايط
وقوة التأثير مايعادلهم به فانه زيادة على ما يبذلونه فى ذلك
من الاموال يستعملون فى البحث عن تلك القطع خدما
متعودين على هذا العمل لا يظهرون منها شيأ لمن يسألهم عنها
ولما كان حكام تلك البلاد يعاملون اهلها بالعسف
والظلم منذ مدة طويلة كان الاهالى الى الآن لا يخطر ببالهم
أن هناك حكومة قوية عادلة فلو فرضنا أن الهنود يملكون
من هذه القطع مقادير كثيرة لما اظهروها لارباب الحكومة
الانكليزية ولا لمن يلوذ بهم وقد تعذر على ايضا تحصيل الرقوم
المنقوشة على ألواح من النحاس واما ما وجد منها الآن
فمن المعلوم انه وجد بالصدفة والاتفاق حين حفر الآبار
والغدران او حفر اسس المبانى والعمارات

وجميع اكناف مدينة اغرا يرغب فى الاطلاع عليها
فترى هناك مدينة ديج التى بها اعظم سرايات الهنود
وألطفها ومدينة بورتبور الشهيرة بمقاومة حصنها للانكليز
ومدينة غداوند التى فيها بركة مباركة لطيفة جدا يسمونها

ترثه وكل شئ فى هذه المدينة هندى فتجد فيها كيفية معيشة البراهمة كما هو مسطور فى كتاب مانو ودواوين الاشعار القديمة غير أن البحث فيها عن شئ من العلوم مما لا طائل تحته فان البراهمة لا يفقهون ولا كلمة واحدة من الكتب التى يتصدون لنسخها بل ربما كانوا لا يحسنون قراءتها وقد قابلت منهم رجلا بين مانورا و بندرابند كان يحرس معبدا صغيرا هنالك فسألته هل تعرف اللسان السانسكريتى فأجاب بداهة وقد استغرب السؤال ماذا اعرف لا اعرف الا الاكل

وعلى البعد من مدينة اغرا بستة فراسخ مدينة اسلامية يرغب فى الاطلاع عليها يقال لها فتاحبورسكرى واعظم ما فيها من الآثار والمبانى المرغوبة صحن كبير مربع فى داخل مسجد يشتمل على مدفنين لطيفين بنى احدهما تذكارا لولى عظيم كان قد دعا لاحدى زوجات الشاه المسمى اكبر فحملت ببركة دعائه وابواب مدخل هذا الصحن على احسن شكل من اشكال البنيان وهنالك ايضا مبان اخرى صغيرة لطيفة الاجزاء مقبولة الشكل ظريفة المنظر وكلها مبنية بالاحجار الوردية اللون وبجانبها تجددت عدة مساكن تكونت منها المدينة الموجودة الآن المضروب عليها سور يظهر انه

لم يكن من قديم الزمان مضروبا على سرايات الشاه وكان هذا السور فى ايام الشاه اكبر عبارة عن خلوة لطيفة يدع فيها نساءه حين يسافر للغزو * ومدفن التاجهال انما بنى تذكارا لامرأة فماذا ترى بعد ذلك فيما يقال فى حق المشارقة من الحط والتشنيع عليهم ووصفهم بالحماقة على كونهم يحجزون نساءهم فى البيوت ويمنعونهن من الخروج

وقد حصل فى مدينة بيور قيام وفتنة منعتنى من رؤية تلك المدينة التى هى على ما يقال من المدن التى يرغب فى مشاهدتها والاطلاع عليها فمكثت فصل الشتاء بتمامه فى مدينة اغرا

ومثل هذا القيام الغير العام يحصل غالبا فى بلاد الهند فيبادر الانكليز الى اخماد ناره حتى تسكن الفتنة فى اسرع وقت وهو يدل على قلة صبر الرؤساء من الهنود وعدم تجلدهم لتحمل مشاق احكام الانكليز وعلى أنهم بمعزل عن السياسة وحسن التدبير فلذا كان يكفى فى قمعهم الاى او الايان من العساكر الانكليزية وللانكليز هنالك جيش عظيم تفتخر عساكر الهند بالانتساب اليه والانتظام فى سلكه والانكليز يحترمون اوهامهم الدينية ويصرفون لهم ماهياتهم بالترتيب والانتظام ويختصون بايرادات الهند وتجاراته وهم آمنون

على

على ذلك الحسن ادارتهم فى هذا المعنى فلا تجد من الهنود
من يتضرر من الحكم الا الفلاحين الا أن غيظهم لا يخشى
خطره وبالجملة فكان الاوفق بهم أن يتظلموا من رؤسائهم من
الهنود الا انهم لا يريدون اولا يتجاسرون أن ينهوا ظلاماتهم
و يبثوا شكواهم من رؤسائهم الى ارباب الحكومة
الانكليزية وان كان هؤلاء الحكام دائما مستعدين للذب
عنهم والاخذ بناصرهم

واهل مدينة اغرا يتكلمون باللسان المسمى هندستان
اوردو وهو لسان اغلب كلماته فارسية و يتكلم فيما حولها
بلسان يسمى هندستان بخا وفى هذا اللسان كثير
من كلمات اللسان السانسكريتى وليس له فى النطق به كيفية
معينة ولا طريقة مخصوصة فمن ثم كان يعسر على الانسان
أن يقف على الحقيقة و يفهم الغرض المقصود من هذه
اللغات المختلفة بل كان يعسر ذلك ايضا على من صحبنى من
الهنود فى اسفارى وارتحالى من بلدة الى اخرى

وصلاح الزرع فى ناحية اغرا متوقف على امطار
الصيف الدورية فان احتبست عنهم تلك الامطار امحلوا
وجدبت ارضهم وقد وقع فى السنة التى مضت قبل وصولى
الى تلك البلاد قحط مهول تعذر على الحكومة مع اهتمامها

منع اتلافه ودفع افساده فكنت ترى جميع الغيطان
والفلوات مملوءة بجماجم الآدميين وعظامهم * ولولا أن
فى كل غيط بئرا لما امكن تحصيل شئ من الارض وكيفية بناء
هذه الآبار هى انهم يرصون على سطح الارض صفوفا من
الآجر فتغور فى الرمل بنفسها حتى تستقر على الارض وتثبت
منها على قرار مكين واغلب تلك الآبار ردئ المياه ومن مدينة
كنبور تجد البلاد فى تلك الجهة اقل فى الزراعة من
بلاد بنجالة السفلى وليس فى منظرها مايسر الخاطر ويعجب
الناظر فان مياه نهر يومنا تترك السواحل المتسعة بعد
انحسارها عنها خلية يابسة فيكثر فيها العاقول المسمى عندهم
جنجل ولاترى هنالك الا اطلالا ورسوما من المدن والقرى
والبيوت والمقابر الاسلامية والبرك والآبار المهجورة ولا يهتم
الهنود بتعمير شئ من ذلك او اصلاحه ولا يتممون ابدا عملا
ابتدأه غيرهم اما لفساد اوهامهم او لكبرهم واعجابهم
بأنفسهم بخلاف بنجالة السفلى فان مابها من الرسوم
والاطلال يستره مايخرج بارضها من النباتات الكثيرة بل تجد
فى الغالب مايكتنفها من الاشجار اللطيفة يكسبها نضارة
ومنظرا بهجا يبعث الناظر على اقتراح الشعر واما البلاد
العليا فترى فيها الآثار القديمة مكشوفة لايسترها شئ

من

من النبات بل هي تزيد قبح منظر تلك البلاد وبالجملة فمن مدينة اغرا ومدينة دلهى لا ترى الا منظر حزن واكتئاب يدل على الدمار والخراب

ورجال هذه الجهات طوال شداد حسان الخلقة وهم في السواد دون اهل بنجالة السفلى وقد سافرت غير مرة على التختروان فيما بين مدينتى كنبور ودلهى فكان حملة التختروان يقطعون في سيرهم مع الجرى اربعة فراسخ او خمسة وقت اشتداد الحر في النهار ويشربون الماء على الدوام ولا يأكلون مدة النهار الا حفنة من الجلبان اليابس بدون طبخ وقبانية الانكليز تجمع العساكر من اهالى البلاد العالية فيحضر اليها كثير من الناس ليكتب في زمرة العسكر لكن لكثرتهم لا تأخذ منهم الا من كان طويل القامة ولهؤلاء العساكر في المشي خفة وشمم فهيئتهم في ذلك مباينة للهيئة العنيفة التي عليها عساكر الانكليز وليس ثم الطف ولا اجل من الفقراء الطوال الذين يمشون عرايا متجردين عن الثياب وليس هنالك ايضا من يضاهيهم في لطف الصورة والقامة ولا يدرى كيف هذه الصور الحسان لم تأخذ بالباب المصورين وتحملهم على أن يحذوا حذوها في صناعتهم وشكل المبانى الهندية زيادة على كونه متأصلا عندهم

هو ايضا على غاية من اللطف والظرافة بخلاف فن النقش والرسم فانه لم يحصل له هنالك تقدم اصلا بل معرفتهم فيه هينة جدا ومع ذلك لهم مزيد اعتناء بالبحث عن المنقوشات والمرسومات فتجد بيوت آحاد الاهالى منهم مملوءة بها ولهم ايضا اعتناء باهل هذا الفن حيث لا ينفكون عن ترغيبهم على الدوام ولنذكر لك هنا أن معبودات الهنود لها فى التصوير اشكال مخصوصة لا يتعداها المصورون وهى اشكال بشعة المنظر غير متناسبة لها عدة رؤس وعدة اذرع فرؤسها رؤس افيال واجسامها اجسام طيور وهى اعظم مايعتنى بتصويره المصورون على الدوام وهذه الاشكال البشعة الخالية عن الاحكام والتناسب واللطف هى دائما سبب فى فساد اذواقهم وقلة تمييزهم

واذا تنحيت قليلا عن الطريق الموصلة من مدينة كنپور الى مدينة اغرا صادفت مدينة قانوجه القديمة التى كانت سابقا تختا لدولة هندية ذات شوكة ورأيت موقع المدينة الجديدة يكتنفه من سائر الجهات تلال متسعة فيها طوب من الآجر وهو من آثار المدينة القديمة وهنالك ربوة عليها صحن مربع حوله اعمدة ليس عليها اثر شئ من التماثيل وانما المرغوب من آثار تلك المدينة نقش على صورة الهيكل

الهندى

الهندى الموقوف على جميع الآلهة التى يعبدها الهنود والمدينة المذكورة قذرة وليس فى آثارها ما يستحق الطلاوة والبهجة التى تظهر على صورتها فى الرسم والتصوير وهى واقعة على ربوة صغيرة يجرى فى اسفلها فرع من فروع نهر الكنك صافى الماء عذب المورد وحولها خمائل اشجار ومجارى سيول عميقة كانت فى سابق الزمان ماوى للصوص الذين كانوا يلتجئون الى اراضى الملك اودة فيجدون بها ملجأ مأمونا ولم يزل هذا الموضع الى الآن له شهرة رديئة وسيرة قبيحة وربما عثر فيها احيانا على شخوص قديمة وهى القطع المسماة مداليات ولما رأى البراهمة أن السياحين يرغبون فيها ويبحثون عنها صاروا يصنعون على شكلها ويعرضونها عليهم ويصحبونها بماء الورد والحلوى واغنياؤهم يعرضون منها على السياحين ما كان جديدا شديد اللمعان لقرب عهده بالصناعة ويدعون انها شخوص قديمة وجدوها فى اعماق الاطلال وهم اصحاب معروف يودون مصاحبة السياح فى جميع جهات المدينة ويعترفون له بالمنة ويشكرونه على ما يعطيه لهم من نقود الربيات

وقد احسن الانكليز قراى فى جميع سياحاتى وقابلونى بالترحيب والاكرام بحق انى لا اقدر أن افصح عما يصدر عنهم

فى ملاقاة النزيل من الاخلاص والمعروف والترحيب
والبشاشة فان هذا مما تقصر عنه العبارة وانما اتذكر ذلك
دائما تذكر الشاكر ولا انسى صنيعهم فى الماضى
ولا الغابر

(الباب الرابع)

فى ذهابى الى مدينة دلهى وزيارتى فيها للورد الحاكم
وذكر الجنرال ونتورة والمبادرة بالسفر الى لاهور
وعبور نهر سوتليجة وذكر كاپورتيلة ولصوص الليل
وزيارتى لسردار كاپورتيلة ووصولى الى لاهور واجتماعى
بجناب الملك رانجيت سنغ وذكر الالايات المضبوطة
على منوال الضبط الفرنساوى وبيان نظام الادارة فى
بنجاب وما جمعه كل من الجنرال كورت والجنرال
ونتورة من المداليات وذكر الپانديتى الاعظم الذى بمعية
رانجيت سنغ

قيل أن يحتاج السياح لاستكشاف امور جديدة فيما تحت
حكم القمپانية الانكليزية من البلاد التى يسهل عليهم
استكشاف ما فيها واستخراجه فان جميع بلاد الهند يقيم بها
مدة ثمانية اشهر مهندسوا الاوارجة الذين يسهل عليهم
اختبار البلاد ورسم ما فيها من الآثار الشهيرة ولو هينة

ويبينون

ويبينون للناس التفاصيل الشافية فى الجغرافية والارشيولوجيا (اى علم الآثار القديمة) فلم يبق اذن على السياح الامعاينة ماهو معروف لا استكشاف شئ مجهول ولاريب أن هذا الاختيار وان عظمت مرغوبيته لا يصل فى ذلك الى درجة اختيار البلاد الجديدة والاطلاع عليها فلذا كانت بجميع آمالى وجل الغرض من سياحتى انما هو لاجل بلاد لاهور وكشمير وكان اللورد الحاكم اذ ذاك فى مدينة دلهى فسافرت فى اوائل شهر مارث قاصدا زيارته واستئذانه فى الذهاب الى كشمير غير مكترث برانجيت سنغ فما كان الذ خطابه واعذب كلامه حيث وجدت فيه ما حملنى على الوثوق بحمايته ومساعدته وقد اتفق أن الجنرال ونتورة قدم وقتئذ الى مدينة دلهى فالتمس منى التماس الاحباب أن يقوم بجميع ما يلزم لى من الخدم وقال لى اذا التقينا فى لاهور لم تحتج الى شئ اصلا حتى تيقنت انى اذا وصلت الى هذه البلاد قوبلت فيها بالترحيب والاكرام بحيث كنت معتمدا فى ذلك على حماية الدولة الانكليزية ذات الشوكة القوية ومعولا على ما وقع للسياح ياكيمونت من النصائح والاعانات الجزئية التى لاجلها اطنب فى مدح الجنرال الاردو ولما ذهبت لاستأذن

اللورد في المسير قال لى اذهب الى موسيو تورانس كاتب سرّى فوجدته مع وكيل دلهى يرتب معاشا الأمراء الهنود الذين سلبت منهم املاكهم واقطاعاتهم فكنت أسرّ كلما سمعت هذا الكاتب الشفيق يقول رأفة بهؤلاء الأمراء ويكرّر ما معناه مساكين مساكين

ثم انى خرجت من مدينة دلهى مستعجلا فتركت فيها الخيام والاثقال وركبت على بريد الدالّ وهو التختروان الذى يحمله الرجال كما تقدم فتقابلت فى مدينة لوديانة مع الخواجة وينيه وكان راجعا من رحلته الثانية الى بلاد كشمير فقص علىّ قصصا وحكايات عظيمة فى شأن سخاء حكومة لاهور وكرمها وحقق عندى أنى لا احتاج فى سفرى الى شئ واعاد علىّ الجنرال ونتورة التماسه الاوّل فى شأن المودّة والخدمة فلذا لم افكر فى الاحتراس من عوارض السفر بالتأهب والاستعداد بل لمزيد وثوقى بما سمعت اجتزت نهر سوتليجة فى الخامس عشر من شهر مارث سنة ١٨٣٩ من الميلاد فلم اجد شيأ مما وعدت به وعدا مؤكدا بل طفت جميع تلك البلاد وانا فى اسوء حالة واحقر اهبة وربما نزلت علىّ امطار غزيرة فاضطررت بها الى الالتجاء الى اماكن رديئة حقيرة مملوءة

بالقمل

بالقمل وغيره من الحشرات المؤذية * ثم ان اقليم بنجاب زيادة
على مافيه من الانهر الخمسة الكبيرة يرويه ايضا عدة جداول
صغيرة لا تخاض فى زمن ذوبان الثلج * وزراعة هذه البلاد
جيدة فيما حول القرى والضياع وقد رأيت القمح فيها وهو
فى سنابله والخشخاش قد ازهر ويحصد الزرع الذى
فى اكناف مدينة اغرا فى اواخر شهر مارث فهو
سابق على الحصاد فى بنجاب باكثر من شهر وهذا
التفاوت الحاصل فى مزاج الهواء ليس منشأه مجرد اختلاف
العرض بل هو ناشئ ايضا عن كثرة المياه التى تروى
ارض بنجاب

ثم نزلت فى مدينة كابورتيلة وسكنت منها فى سراية كبيرة
ذات اعمدة وسدود مسطوحة للزرع والغرس وآزاج
واماكن متسعة ذات شبابيك وكانت غير مسكونة واظنها
لا تسكن اصلا فانها فى الحقيقة من اغرب عمارات الهند
وذلك انى لما سكنتها وجاء الليل وكان الوقت اذ ذاك
صحوا والقمر على غاية من الانارة رأيت اشعة نوره تتلاعب
بين الاعمدة حتى كأنه يخرج منها كل طرفة عين خيالات
يرجف منها القلب ويفزع وفيها ايضا امور اخرى يخاف منها
فانى بينما كنت فى النوم اذ احسست أن شيأ يؤخذ من

تحت رأسي وكان هذا الشيء هو المحفظة الصغيرة التي كنت
اكتب فيها تسويدات الرحلة فظننت اني احتلم فلما اصبحت
وجدت المحفظة في غير موضعها وفقدت بعض اشياء من
امتعة الرجال الذين كانوا معي في السفر ولم اقف لها على اثر
فعرض علي السردار حاكم البلاد أن يدفع لي ثمن الاشياء
المسروقة ومتى كان للانسان حظوة وقبول عند حاكم
من حكام تلك البلاد عادت عليه السرقة بالمنفعة العظيمة فانه
يدفع له اكثر من قيمة المسروق وقد كنت ذهبت لأقابل هذا
الحاكم فاذا هو مفرط في الغلظ وذلك عند الهنود من صفات
الجمال الممدوحة اومن شعار الاعتبار والوقار لان السمن
عندهم علامة على اليسار والاقتدار بخلاف النحاف فانهم
عادة صعاليك لا يقتدرون على تحصيل الاقوات الجيدة
والاطعمة الطيبة بل يشدون احشاءهم لئلا تضربهم المسغبة
وكان ذلك اول مرة رأيت فيها ديوانا هنديا فتعجبت
مما رأيته فيه من المخالطة بين الامير واتباعه وبقية الحاضرين
علي اختلاف درجاتهم فاني وجدت هذا الامير ووزيره
واصاغر الاتباع جالسين جميعا على الارض في اودة واحدة
وقد ابدى هذا الوزير مالامزيد عليه من الرغبة حين اطلع
على ما في رحلة بورنس من التصاوير والرسوم وكنت

استصحبت

استصحبت هذه الرحلة معى الى بلاد الهند ولم يلتفت
الى ما كان يرد عليه من مكاتبات المصالح ولا الى اوامر
سيده وطلب منى اهل الديوان أن آتيهم بعدة اشياء
ليطلعوا عليها فأخذوا نظارة صغيرة من النظارات التى كانت
معى ولو طلبوا ازيد من ذلك لما قدرت على الامتناع فالحمد لله
على هذا التأديب الذى لم اغرم فيه اكثر من ذلك
فعلى السياح أن لا يطلعهم على ما تسمح به نفسه فانهم
لا يتحاشون عن طلبه واخذه * ثم ان بعض اراضى
هذا الحاكم واقع على الشاطئ الآخر من نهر سوتليجة
والفضل للانكليز عليه حيث حموه من اقتيات رانجيت سنغ
وتعديه على اراضيه فلذا كان يظهر منه أنه يحبهم
ويميل اليهم
وكان وصولى الى مدينة لاهور فى الحادى والعشرين من
شهر مارث فأقمت فيها مدة لم اقابل الملك ثم بلغنى ذات يوم على
حين غفلة أنه يريد مقابلتى فقابلته على البعد من المدينة
بفرسخين ولم تكن هذه المقابلة عظيم شئ بل لحقارتها حملتنى
على أن اسئ الظن بالابهة والرونق المشرقيين ثم انى اهديت
اليه بوصلة (بيت ابرة) من الفضة واحدى عشرة قطعة
من الذهب وينبغى للانسان اذا اهدى هنالك مثل هذه

الهدية أن يستريده بساتر عند تقديمها ولما كانت عادة الهنود أنهم لا يلبسون القفاز فى ايديهم كانوا اذا قدّموا هدية جعلوها فى طية من ثيابهم وكان هذا الملك جالسا على كرسى ذى مساند بين احد علماء البانديتية وابن الوزير وكان الوزير نفسه جالسا على الارض والافرنج هم الذين احدثوا عندهم عادة الجلوس على مثل هذه الكراسى فى دواوينهم وعوّدوهم ايضا على أن يمشوا على البسط النفيسة بالنعال المتوحلة ورأيت الملك صامتا يظهر عليه أنه حزين لكن لم يكن ثم شئ يدلّ على قرب اجله ولما اخذ البوصلة نظر اليها وهزها هزا عنيفا فظهر لى أنه لم يفهم فيها شيأ ثم انهم سألونى عن وظيفتى فى فرانسا فأجبت بأنى وكيل من وكلاء الدعاوى فى المحكمة وحيث انهم لم يترجموا هذا اللقب ترجمة صحيحة سألونى ثانيا فقالوا اىّ بلاد كنت تديرها فى فرانسا وهل فى وسعك أن تحكم اقليما فما كان منى الا انى حافظت على الجدّ ولم اظهر ادنى شئ يشعر بالاستهزاء بهم لاقتضاء الحال هيبة هذا المجلس وتوقيره * ولا تدرى الهنود ما معنى الارساليات العلمية لأن كل شئ عندهم من قبيل السياسة حتى ظهر لى انهم لم يثقوا كل الوثوق بما ابديته لهم من الاغراض الحاملة لى

على

على السياحة فى بلادهم بل كان عندهم نوع ريبة فى ذلك ثم اراد الملك أن يقضى الحاجة فأتى له فى الديوان بأناء من المعادن فاحتوى فى التستر باستدبارنا وقام له عند ذلك جميع الحاضرين اجلالا له وتعظيما حتى فرغ من قضاء حاجته

ثم اذن لى فى الانصراف واعطانى ما يعطى عادة للسياح وهى كسوة التشريف المسماة بلسانهم كيلات وهى عبارة عن شالين خلقين بعتهما فى السوق بسبع روبيات (اى سبعة عشر فرنكا) وامرلى بصرف ثمانين ربية واحدى عشرة صحفة من صحاف الحلوى عند وصولى الى كاشمير واخذت منه ما هو أهم عندى من ذلك وهو تذكرة السفر الى هذه المدينة ويقال لهذه التذكرة عندهم پروانة ثم حييت هذا الملك الهرم وفارقته وانصرفت ولم اره بعد ذلك

ثم ان مدينة لاهور تظهر للناظر من بعيد انها ذات منظر لطيف لكثرة قبابها المذهبة فاذا دخلها الم يرالا بيوتا قذرة وأزقة ضيقة فى وسطها جدول ماء منتن ويحيط بها خندق واسوار وليس حولها الا القاذورات يتمرغ فيها خنازير سود يبغضها كل من المسلمين والافرنج وبالقرب من المدينة محل

يقال له انار كالى وهو مسكن كل من الجنرال ونتورة
والجنرال الارد وسهل متسع لأجل الرياضة ومنازل
للعساكر وبيت نزهة كان للجنرال الارد وهو الآن
مدفنه وليس فى آثار المدينة القديمة شئ من الامور الجليلة
الخطيرة بل هى بشعة المنظر لما فيها من الاوساخ وكذلك
البلاد المجاورة لها فان منظرها كمنظر بلاد الهند العليا
لا يسر خاطرا ولا يشرح صدرا
ومدينة لاهور المذكورة هى تخت اقليم بنجاب
وان كانت لم تصل الى هذه الدرجة من حيث الدين والتجارة
لأن اهم المدن هنالك انما هو مدينة امريتسير فانها
مستودع عظيم لتجارة شيلان الكشمير حيث يوجد بها
من هذا الصنف مقدار كبير وهو فيها ارخص ثمنا
مما فى كشمير وليس فيها شئ من الآثار المرغوبة الا البركة
المقدسة التى يعتقدون بركتها واهم فى هذه البركة كتاب
دينى يسمى غرانث ينسب لطائفة من الهنود يقال لها
سخس وهو موضوع هنالك فى غرفة صغيرة قبتها مذهبة
يتوصل اليها بقنطرة منيرة بشموع موضوعة فى شمعدانات
كبيرة وحولها آزاج يقيم بها امناء دين تلك الطائفة المسمون
اكاليس وهم فى ظاهر أحوالهم من الفجرة الاشرار

يلبسون السواد ويمشون وسيوفهم مسلولة بأيديهم وقد قابلت منهم عدة اناس وتكلمت معهم فوجدتهم من الاخيار ويحسنون ملاقاة من اراد الاطلاع على هذا الكتاب والبركة المذكورة اذا بذل لهم شيأ من الربيات وخلع نعليه * وارض اقليم بنجاب على غاية من الاستواء فتفيض عليها مياه الانهر فى فصل الامطار وترى فى جميع جهاتها سهولا متسعة خالية عن الزراعة يرتع فى حشائشها البقر والجاموس وهذه الحيوانات عندهم مقدسة مباركة فعلى من اراد الامن على نفسه من العطب أن لا يتعرض لها فان ارتكاب اكبر الكبائر اهون من قتلها ولو خطأ

وفى هذا الاقليم كثير من اراضى العاقول المسماة جنجل وفى هذه الاراضى كثير من الاشجار الصغيرة والاشجار الكبيرة التى تبلغ عشرين قدما وفيها من حيوانات الصيد على اختلاف انواعها مالا يحصى كثرة

وعساكر السردارات (اى الحكام الهنديين) اغلبها خال عن الانتظام والترتيب وفيها بعض الايات متعلمة اصول العسكرية على المنوال الفرنساوى وتنادى فى الحركات العسكرية بكلمات النداء الفرنساوية ورايتها مثلثة الالوان كالراية الفرنساوية ولهذه الجنود المنتظمة الفضل

على رانجيت سنغ حيث اكتسب بها جزأ مماله من الشوكة والقوة لاسيما العساكر المشاة الذين هم فى بلاد المشرق على غاية من الابتذال والاحتقار وكان عنده عساكر طوبجية مهيبة الا أنه لم يمكنه أن يتعود على طريقة الاستحكامات القرعة (اى المساوية لسطح الارض) واما الحصن الذى بنى منذ قليل فى مدينة امريتسير فهو على المنوال القديم جدرانه مرتفعة فوق الارض * ورؤساء السخس على غاية من الشجاعة وشدة البأس فتراهم فى الصيد والقنص يهجمون بانفسهم على الخنازير الوحشية والنمور حتى كأنهم يصارعونها ولا يخطئون المرمى اصلا فى صيد طير او ارنب برى ويستعملون مدافعهم استعمالا جيدا الى الغاية ومع ذلك فجميع عساكر پنجاب لا يمكنها مقاومة بعض الايات من عساكر الانكليز ورانجيت سنغ يعرف ذلك حق المعرفة حتى انه على ما يقال يسخر غالبا من سرداراته عند مدحهم لانفسهم بالشجاعة وفرط القوة

ورؤساء الهنود وضباط الافرنج يدفع لهم بعض ماهياتهم من النقود والبعض الآخر من القرى فهم فى الغالب مضطرون الى الالزام بدفع الخراج بطريق القهر والغلبة

حيث يعينون لجبايته عساكر يرتكبون فى ذلك جميع
انواع المفاسد والاجحاف * ورؤساء القرى يقبضون
محصولاتها لانفسهم بشرط أن يدفعوا للخزينة الميرية
مقدارا معينا وقد يكونون تحت تبعية رئيس خط او حاكم
اقليم فيدفع هو ذلك المقدار للخزينة من الخراج ومتى قام
هؤلاء الحكام بدفع هذا الخراج (يعنى المقدار المذكور)
لم تعتن الدولة بالالتفات الى سلوكهم فى مأمورياتهم
وهذه الاراضى التى يقبضون خراجها لانفسهم ليست
الا مجرد اقطاعات هينة فانك تجد من الاعيان من له ارض
خاصة به يولى عليها مديرين وحكاما من طرفه وله عمال من
تحت حكمه قائمون بطاعته وامتثال اوامره ومنهم من هو
اغنى من الملك ولا يجب للملك عليهم الا مجرد اتباعه فى الحرب
واخراج ما يخصه من العساكر وهذا كما ترى هو عين طريقة
السيادة الالتزامية

ولاجل منع ما كان مضرا بالبلاد من السرقة وقطع الطرق
نيط كل رئيس قرية بكفالتها حتى لو وقع شئ من ذلك توجهت
عليه المسئولية وكان هو المطالب به وكان رانجيت سنغ
يأمر بقطع انوف الدكوات وهم ارباب الصيال وقطع الطرق
وهذا العقاب يقع كثيرا فى بلاد بنجاب ومن صار اجدع

بقطع انفه جعل مكانه انفا مستعارا و يتعذر على الانسان من بعد تمييز تلك الانوف المستعارة من الخلقية واما ذنوب الاعيان فعقابها دفع المغارم وقل أن حكم رانجيت سنغ بالقتل على احد الا أن الحكام والسردارات الاخر يفعلون فى بلادهم ماشاؤا فيحكمون فى دعاوى المعاملات والجنايات بما ارادوا وقد اضطر الجنرال كورت ذات يوم الى الاجابة والتسليم فى كون عساكره يحرقون عائلة من المسلمين كان كبيرها قد قتل ثورا وكل ذلك لم يترتب عليه طريقة مستحسنة فى الحكومة ولكن اذا تأملت الحالة التى كانت عليها هذه البلاد سابقا لم تجد بدا من مدح هذا الرجل العظيم (يعنى رانجيت سنغ) الذى اكسبها الهدء والعز وكان اجتماعى بهذا الملك الهرم فى اواخر عمره وكان لامناء دينه والانكليز سلطنة عليه حيث كان مفوضا لهم امر خزائنه ومملكته وكان فى مبدأ امره زميندارا (اى اميرا صغيرا) خاملا خاليا عن حسن التربية امّيا لا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف اللسان الفارسى الذى هو لسان الدواوين والسياسة قصير القامة غير جميل المنظر مع أن حسن الصورة فى تلك البلاد له اهمية كبيرة واعتبار عظيم فتوصل بمجرد براعته وجودة قريحته أن تملك على مملكة كبيرة كمملكة

فرانسا

فرانسا من غير آن يريق فيها نقطة دم ولا ان يستعين على ذلك الا بمهارته فى السياسة الملايمة لاخلاق اهل تلك البلاد وقد قضى عمره فى مدة معارضة الانكليز ومنعهم عن ان يكون لهم نفوذ كلمة فى بلادهم لكن آل امرهم الى أن تمكنوا من ذلك وكان قريب عهد بالاذن لهم فى مرور عساكرهم من بلادهم ليسلكوا منها الى مملكة افغانستان

ومن اعظم البراهين الدالة على حزم رانجيت سنغ وحذقه فى السياسة اعترافه بالعجز عن مقاومة الانكليز وعدم اغتراره بما حازه من الظفر والنجاح واهماله لاغواء سرداراته الذين لو أطاعهم لوقع فى الخطأ بتصديه لمقاومة شوكة قوية عليه فمنع بذلك ان يكون للانكليز مدخلية فى مباشرة مصالحه الداخلية لانهم بهذه المدخلية صار لهم سلطنة على سائر ارباب الشوكة من الهنود الذين جبروا على قبول مدخليتهم فى مصالحهم

ويمكن أن بلاد پنجاب تصير مستقر شوكة مهيبة لا سيما اذا جمع الخطر العام (اى الخوف من شوكة الانكليز) بين السخس والافغان بحيث يصير الامتان حزبا واحدا لكن هاتان الامتان يبغض بعضهما بعضا اكثر من بغضهما للانكليز بل فى پنجاب نفسها عدة من رؤساء البلاد

جرّدهم رانجيت سنغ عن اراضيهم فأعادتها اليهم قبانية الانكليز فلها بذلك المنة والفضل عليهم والمسلمون هنالك مظلومون فهم يبغضون كلا من السخس والهنود *
وهذا التفاقم الواقع بين الملل وبين الرؤساء وبين الطوائف الذين عرف الانكليز بمهارتهم كيف ينتفعون منه يعرف به سبب ما حازوه فى تلك البلاد من القوة العجيبة والشوكة الغريبة فلم يكن لهم فى ذلك الا تسليط هذه الامم المتباغضة التى كل واحدة منها تبغى محق الاخرى على بعضها وهذه الطريقة السياسية هى التى سلكها فى اوروبا من اسس شوكته على اثر شوكة غيره بعد ان محقها الآن بلاد الهند فيها الاختلال والتفاقم اشدّ ووسائط الغالبين تفضل وسائط المغلوبين فضلا بينا بحيث لا نسبة بينهما فلذا كان النجاح فيها اسرع

ثم ان مدينة لاهور فيها كثير من الكتب الفارسية والهندية المنسوخة بخط اليد وقد حظيت فيها بشراء الغرائب وهو (كما سبق) كتاب ديانة السخس وهو باللسان البنجابى المسمى ايضا باللسان الجورموخى وهذا اللسان لكونه اقرب للسان السانسكريتى من الفارسى قل ان يفهمه المسلمون

ثم ان الجنرال ونتورة جمع جملة من المداليات نقلها الى بلاده والجنرال الارد وكذلك الجنرال كورت جمع ايضا منها جملة وقد بحث كل منهما عنها فى ارض مانيكيالا ولم تكن كلفة ذلك عليهما مجرد بذل الاموال الجسيمة بل تكلف امر آخر ايضا فانهما لولا نزولهما بالالايات من العسكر فى مظان ذلك وحظوتهما عند من يرغب فى استمالتهما وحسن التفاتهما اليه من اهل تلك البلاد لما نجحا فى تحصيلها فمن طمع من السياحين ان ينحو نحوهما فى ذلك ويفعل كما فعلا فانما طمع فى تحصيل امر خيالى لا حقيقة له وطالما شاهدت اناسا يأتون بالمداليات للجنرال ونتورة وقد اتحفنى منها بجملة من النحاس واعطى منها ايضا شيأ لواحد من اطباء الانكليز كان يجتهد فى تحصيل جملة منها واتحفنى الجنرال كورت بلوحين من النحاس عليهما نقوش قديمة وليس فيهما شئ من الامور المرغوبة كما فى امثالهما من العنوانات التى لكونها عبارة عن صحف مشتملة على اقرار الملوك للاقطاعات التى يقطعونها الرعايا هم تذكر من يطلع عليها باسم الملك المقطع وببعض حوادث حصلت فى ايامه وكان قد اشتهر خبر هذين اللوحين من جريدة حوادث كلكتة

ثم أن الملك رانجيت سنغ كان عنده عدة من البانديتية وكان له فى مدينة بيناريس رجل من البراهمة قائم له بوظيفة الصلاة والدعاء ولما كان هذا الملك مشغول الفكر باقتراب وفاته كان يود أن يوصى على روحه جميع القديسين واعظم من كان عنده من البانديتية مشهور بانه علامة صاحب فضل ومعارف وكان بينى وبينه مراسلة ومكاتبة باللسان السانسكريتى وكنت قد ذهبت لزيارته فرأيت عنده كتبخانة عظيمة جميع كتبها باللسان السانسكريتى وكانت هذه الكتب قد سرقت فى فتح مدينة كشمير فطلبت منه قائمة باسمائها فقال لى ما الفائدة فى ذلك وانما خذ هذا الكتاب يغنيك عن كل علم فأخذته فاذا هو كتاب يتعلق بالدين ألفه هو فى بيان حقيقة معبوده المسمى سيوة وصفاته وكان هذا العالم شديد الغيرة على اتباعه ثم ان العلوم التى يعتنى بها البانديتية الذين لهم المام بشئ من المعارف او الذين يزعمون ذلك هى علم الفلك او التنجيم والمجادلات الدينية وليس لهم الآن ميل الى التشبث بآداب لغتهم المستظرفة

وبعد زيارتى لهذا العالم انقطعت عنى اخباره ولا يخفى انه انما تركنى لكونى فقيرا مجردا فى تلك البلاد عن الظهير والمعين

وانما

وانما حملني على الرحلة الى تلك الجهة غروري باخبار السياحين والمواعيد الاكيدة التي وعدت بها في شأن الحماية والاعانة فاستشعرت أن هذه الرحلة قد عرضتني الى موانع وعوائق عظيمة غيرأني لم اكن مستعدًا للرجوع فتركت كثرة الفكر في شان ما انا قادم عليه من المشاق وتماديت على السفر مصمما على المخاطرة

(الباب الخامس)

في سفري من لاهور الى كشمير والكلام على ويزراباد وغوزارات وغوزونوالة وعلى قارورات دفن والدى رانجيت سنغ واحتفال جنائز الهنود والصحس وعلى بنبر وعلى معاملة النساء في الهندستان وتعريض قتلي الاشرار في الطرق وعلى الزواج في الهند وعلى وادى راجور ومنبع المياه الكبريتية وعلى مايقوله الهنود في شأن الدول الافرنجية وعلى مروري من بيربانجال وسراية الباباد ووصولي الى كشمير

فبعد أن اخذت من الملك تذكرة الطريق المسماة عندهم برفانة سعيت في تحصيل تذكرة اخرى من الصدر الاعظم المسمى رجادهان سنغ حيث كان لابدّ لي من المرور على ارضه في ذهابي الى كشمير لأن الحكومة في لاهور

الترامية فكل رئيس فيها سيد على اراضيه مطلق التصرف
فيها واعطيت لاجل الحراسة فى السفر خفرا يتغير فى كل بندر
وكذلك اعطيت خادما من اصاغر الخدم لاجل تسليك
تذكرة الملك وتذكرة الصدر الاعظم ثم أن ترى الضيف
من خصوصيات اهل المشرق فانهم يقابلون نزيلهم بغاية
الترحيب والاكرام ويواعدونه مواعيدا كيدة بانهم يبذلون
نفوسهم فى خدمته وهذا وان كان من المواعيد المزخرفة
والعبارات المموهة الا أنه لا يخلو عن بعض الصدق ففى اى
محل كنت انزل به من الطريق يأتون الىّ بطيور ولبن وفرش
وحشائش لفرسى وهذا الاكرام الذى قابلونى به هو ادنى
درجات الكرم عندهم فان احسنوا القرى اصحبوا النزيل
بخادم من اكابر الخدم يتلقى منه الاوامر ويتبعه ايما توجه
ويجلب له جميع ما يمكنه جلبه من تلك البلاد ويعظم قدره
بين الناس ولكنى كنت على خلاف ذلك وكان اعظم مصائبى
هو أن التذكرة التى بيدى كانت محددة للطريق التى اسلكها
مع غاية التدقيق بحيث كان لا يمكننى مجاوزتها
وكان خروجى من لاهور فى الخامس والعشرين من شهر
ابريل فذهبت من الجهة الاخرى من نهر راوى ونزلت
فى مدفن جيها نجير فوجدته كغيره من مدافن الامراء

يشتمل

يشتمل على بستان ومسجد وخان ثم سافرت منه وكنت كلما اردت النزول نصبت خيمة صغيرة لاتقيني من الشمس ولا المطر ولا الرياح ولا الغبار وربما نزلت ببعض الاحيان في سرايات لطيفة محفوفة بالبساتين فكان تنوع حظي بهذه المثابة في مدة سفري كلها لايخلو عن اللذة وانبساط النفس وجميع اراضي تلك البلاد ذات رمال كثيرة العقول ولا يزرع منها الا ما حول القرى والضياع وكل اراضي الهندستان بهذه المثابة حتى البلاد التي تحت حكم قبانية الانكليز وسبب ذلك كما اسلفناه ان الفلاحين لايتجاسرون على التباعد عن بلادهم بمسافة بعيدة خوفا من ارباب الصيال المسمين زكوات ومن الحيوانات المفترسة لاسيما اهل پنجاب فان اسباب الخوف عندهم اكثر ويزرع هنالك القمح والشعير والزعفران وقصب السكر وقد وجدت عدة باقات من الشوفان الازب ذي السفا وحبه كثير الدقيق ولا يزرع هنالك

والقرى العظيمة مبنية على ربوات صغيرة مستورة باسوار مرتفعة ولا هلها اعتناء بغلق الابواب مدة الليل وكل شئ هنالك يستدل به على أن تلك البلاد مكثت مدة طويلة تخربها الحروب واغارات ارباب الصيال وقد قابلت فرقا

عسكرية نازلة فى الطريق لمنع هؤلاء الناس من النهب والسلب

واشهر ماهنالك من المدن التى فى جهة اقليم بنجاب مدينتا ويزيراباد وغوزارات فامّا ويزراباد فقد جدّد معظمها الجنرالى اريتابيل وشارعها الكبير على غاية من الحسن واللطافة ومن الغريب أنه ايضا على غاية من النظافة وفى كلتا جهتيه صف من الدكاكين وبابها المسمى باب لاهور على شكل قوس من اقواس النصر ويتوصل اليه الداخل من طريق مغروسة بالاشجار وفى طرف المدينة بستان عظيم فيه عدّة سرايات وعلى البعد منها بخمسة فراسخ مدينة غوزارات وهى من بلاد الصدر الاعظم راجادهان سنغ وكان اذ ذاك يجرى فيها اشغالا عظيمة وله بالبعد عنها بفرسخ سراية لطيفة والظاهر أن جميع تلك البلاد اخذت فى الصلاح

واسماء المدن والقرى بتلك الجهة ذات ترنم ونغم وطرب بعضها يذكر السامع باسم الله اوباسم ولى اوحادثة شهيرة يجد لها السامع مايجده عند سماع الشعر من اللذة والطرب وهذه الاسماء تتغير غالبا عند اهل تلك البلاد حتى أن الهنود والمسلمين يسموا القرية الواحدة باسمين مختلفين

وتصادف في جميع الطريق بساتين مغروسة بأشجار البرتقان والرمان والغار وكثيرا من الآبار التي بعضها كالعيون وترتفع مياهها بواسطة آلة وتصب كالشلالات في حياض واغلب هذه الآبار من الامور الخيرية ووجوه البر ولا شيء أليق بامور الخير التي من هذا القبيل من تلك الاقطار القحلة الشديدة الحر

وفي مدينة غوزرونوالة سراية صغيرة فيها بستان وقفها الملك على طائفة الفقراء المعروفين بالدراويش (فهي كالتكية) وفي هذه السراية قارورات دفن والدى وانجيت سنغ (وهي القارورات التي حفظ فيها رماد جثتهما بعد احراقهما) ولم أر غيرها من هذا النوع في بلاد الهند وذلك لأن الهنود والسخس يحرقون اجسام موتاهم ويتركون رمادها ولا يحفظونه في وعاء من الاوعية

وفي بعض الاحيان كنت اشاهد وانا اتريض على شواطئ النهر احتفالات احراق الموتى وكيفية ذلك ان اقارب الميت يحملونه الى الشواطئ ويوقدون نارا كبيرة او صغيرة على قدر حالهم ثم يجثون على ركبهم مصطفين واحدا بعد واحد ويصلون صلاتهم ثم يذهبون للاغتسال حتى اذا اشتعلت النار وتأججت انصرفوا فتشم الكلاب رائحة الرمة بعد

انصرافهم فتتأتى اليها من جميع الجهات تحاول اخذ قطعة مشوية من فخذ الميت اوذراعه ولا ادرى هل عدم احترام الميت بهذه المثابة عام لكل ميت حتى الاكابر او هو مخصوص بغير الاكابر

ولكن هذا مخالف لما ذكره كولبروك في مجموعاته ونصت عليه الكتب السانسكريتية في وصف هذه الاحتفالات حيث ذكروه بوجه آخر

ولنذكر لك هنا كيفية صلاتهم على الميت وهى عبارة عن مواعظ يتلوها اقارب الميت وهم جاثون على ركبهم حول النار الموقدة لاجل احراقه من غير أن تدمع اعينهم بل يمنعون انفسهم من البكاء عليه وهى

مجنون من يطمع فى بقاء الحياة البشرية السريعة العطب كسوق اشجار الموز والمارة كزبد الامواج

وحيث ان الجسم المتكون من العناصر الخمسة ظهر ليجازى على اعماله التى عملها فى وجوده السابق ثم عاد الى عناصره الاولية المذكورة فما الموجب للاسف والبكاء عليه

واذا كانت الارض كلها مصيرها للزوال وكذا البحر المحيط بل والآلهة انفسهم فكيف بالخلق الضعيف المسمى انسانا وكيف يتأتى له الفرار من العدم

وكل صغير عاقبته العدم وكل رفيع غايته السقوط وكل جسم مركب نهايته التحلل وغاية الحياة الموت

وحيث ان الارواح تتاذى بالبكاء فلا تبك بل وف برسم الجنازة على ما ينبغي

ولا حاجة لذكر اسفارى اليومية تفصيلا لما أن الحوادث التي كانت تحصل فيها لم يكن لها كبير فائدة وانما اقول انه كان معي فى تلك الاسفار خفر وخدم وقاسيت فيها مالا مزيد عليه من الجوع والعطش والحر وذلك أن مشايخ القرى المسمين تانادار لما كانوا مجبورين على العمل بما فى بروانة الملك وبروانة الوزير كانوا يبعثون الى بأردأ ما فى الأسواق مما احتاجه منها ولأجل أن يفهمونى انه لاذنب عليهم فى ذلك كانوا يمنعون البياعين أن يبيعوا الى شيأ والضابط الذى كانت معه البروانة لم يكن جليل المقام حتى يمتثلوا امره بل رأيت منه أنه كان يتفق مع جميع الناس على سرقة مامعي وعلى اجاعتي وكنت اسافر مدة من الليل لأن الرياح الحارة كانت وقتئذ قد أخذت فى الهبوب ولأن حر النهار مضر تفتر به الهمة وفى مسافة الطريق كنت دائما ارى الجبال فكنت اتسلى على تعبي برجاء اجتيازها بعد يسير من الزمن

وبقرب تلك الجبال كنت ارى السهل يعظم انحداره ويبدى للرائى صفا ثالثا قليل الارتفاع وجميع ما حوله من البلاد له موقع عظيم يحق أن يرسم وتؤخذ صورته ورأيت فى مدينة بنبر امرأة مربوطة فى المحراث مع ثور من ثيران الحراثة وفى بلاد الهند تجد نساء العامة غير مقصورات بل يخرجن ويشتغلن كثيرا وازواجهن فى الغالب يسيؤون معاملتهن بخلاف نساء الخاصة سواء كن مسلمات اوهنديات فانهن دائما مقصورات فى بيوتهن ولا يباح لاحد أن يتكلم بشئ فى شأنهن فلذا كانت عوايدهن مجهولة وانما الذى يعرف فى حقهن أن ازواجهن قد يلحقهم الفقر والافلاس لما يبذلونه فى تحصيل الحلى والملابس الفاخرة لهن وليس لهم فى هذا الحلى فخر ولا عجب لأنه محجوب عن الابصار والنساء وان كن مقصورات فى البيوت ولا يخرجن عن طاعة ازواجهن بل هن دائما تحت قبضتهم وتصرفهم الا أنه لم يضع لهن شئ من نفوذ الكلمة عليهم وهذا يرد على من اعترض على اهل المشرق فى عادتهم مع نسائهم

والارض التى بين مدينتى بندا وبنبر ذات رمال مختلطة بفراش من الحصى المستدير فهى كشوا طئ البحر سواء بسواء وفيها ايضا كثير من المحار الصغير

ولما ذهبت الى مدينة بنبر نزلت فى سهل امام الدرب بمسافة صغيرة فرأيت موقعا حسنا ومنظرا متنوعا جديرا بأن تؤخذ صورته كمناظر الجبال عادة وفى هذا المحل اخر شجرة من اشجار المتغير والجهة الاخرى من الجبل شديدة البرد على اهل تلك البلاد وكان نزولى تحت تلك الشجرة فرأيت بجانبها جدول ماء جار يكتنفه اشجار مزهرة من شجر الدفلى

وسهل بنبر محصور بين الجبال وحره شديد جدا وفيه نهر صغير تمده الامطار على حين غفلة حتى لا يمكن خوضه وقد اردت أن اشرع فى ابحاث جغرافية حتى اعرف مجرى هذا النهر فلم يؤذن لى بالمرور فألححت فى ذلك فلم اجب الا بالمنع فترتب على هذا المنع بانضمامه الى الحر وتعب السفر أن اصبت بالحمى حتى غلبنى القئ وكانت حمى جبلية لا دواء لها الا النقلة فسافرت مع تسعة رجال لحمل امتعتى واثقالى ولم يقع لغيرى من الافرنج مثل هذه الاهبة الحقيرة فوجدت فى اعلى الدرب منزلا معدا لاستراحة السياحين وفيه جمجمتان معصوبتان بدوائر من الحديد تنزل عليهما الاغربة جريا على ما سبق لها من اكل الرمم فى هذا المحل لأن عادتهم هنالك أنهم يشنقون المذنبين ويعرضونهم فى الطرق ليكونوا عبرة لغيرهم

وتسمى هذه السلسلة الاولى من تلك الجبال بسلسلة جبال اوديدولك

وفى جانب الجبل طريق ضيق فى غابة من اشجار التنوب الشاه بلوط يهبط منها الى واد فنزلت بقرب بركة ومع ما اعترانى من وعثاء السفر والمشاق وشدة ما اجده من رؤيتى لنفسى كالاسير واساءة ادب الخفر الذين كانوا معى لم يفتنى شئ من مشاهدة مناظر الجهات المحيطة بنا فان ذلك الوادى اللطيف المسقى بالغدران الصافية المياه والمحفوف بالتلال المتنوعة المناظر فى آن واحد والجبال المشيدة التى على ذرواتها الحصون الشاهقة والصخور والآجام والبساتين والغيطان المزروعة يتكون منها منظر بهيج يأخذ بالالباب وكان بجوار البركة التى نزلت بها مسكن رجل مسلم من الفقراء اهل الطريق قد دعانى للضيافة فى منزله فاحببت أن ابيت تحت كبد السماء المزين بالكواكب التى كنت اشاهدها كأنها مرآة منعكس فيها الجبال المظلمة الالوان ومنتقش فيها صور ذلك ومع ذلك فقد شكرت دعوة ذلك الفقير الكريم ولم اجبه الى الضيافة وقد رأيت أن المسلمين اكثر ميلا لاقراء الضيوف احتسابا من الهنود فى عمل الضيافة ولا اخص بذلك مسلمى اقليم بنجاب الذين هم فى اشد الظلم والفقر

بل

بل اعم جميع مسلمى بلاد الهند كما قد ذكرت ذلك فى غير موضع
من هذه الرحلة

فليس عند هؤلاء المسلمين تلك الاوهام والعوايد التى تمنع
الهنود بتغلبها على عقولهم الفاسدة من أن يعيروا الغرباء
منازلهم اوشيأ من الادوات المنزلية

وقد مر بالطريق مساء محفل من الرجال ما بين مشاة وفرسان
وكان يضرب امامهم آلات مفرحة مطربة وكان ذلك عرسا
فأشاروا الى على الزوج فوجدته شابا صغير السن يبلغ من العمر
خمس سنين اوست ولم تكن العروس فى الزفاف فى هذا المحفل
وهذه الامور من الدقائق التى لا يليق لمثلى الاستغماص عنها
فلم يمكنى أن استفيد حقيقة هذا الزواج الغريب انما وقفت
على أنه تزويج الصغير للصغيرة وكذلك زواج الشيوخ
بالابكار المراهقة فتعقد اقارب الزوجين العقد باعتبار أحوال
ثروتهم وشرف عائلتهم وهذه هى المكافاة عندهم

وفى بعض بلاد الهند يقتلون البنات اذا ايسوا من تزويجهن
بالكفاءة وقد اجتزت سلسلة جبال ثانية تسمى كيمان كوشاه
فوصلت الى وادى راجور بعد مسير يومين وفى الطريق
خانات للمسافرين كان قد بناها الملك اكبر ومعظم هذه
الخانات قد تهدم واما الطريق التى احدثها المسماة بالطريق

السلطانية فليست الآن الاطريقة ضيقة رديئة لا يمكن
مرور شخصين معا يلصق بعضهما في اتجاه واحد ويشاهد
الانسان قبل الوصول الى مدينة راجور حصنا فيه برج
شامخ يظن على بعد أنه بيت ناقوس كنيسة من كنائس بلاد
اوروبا فياله من محل لطيف يهيج به قلب السواح من الافرنج
ويحن الى وطنه ويتذكر مسقط رأسه ووادى هذه الجبال
يرويه نهر تزداد مياهه كل يوم بما يذاب من الثلوج فلا بد
للانسان غالبا من عبوره وفراش هذا النهر يتكون من حصى
دقيق متموج يصعب بسببه عبور هذا النهر وتجد في بقعة
هذا الوادى آثار قصور والحصون متفرقة شغر بغر
وكان الرجا الذى هو حاكم مدينة راجور قد تنازل
عن بلاده وأهداها لرجا دهان سنغ وكان في بلاد لاهور
حين مررت بها فلم اقابله الا في اوبتى من هذا السفر فوجدته
من صلحاء الاسلام حيث يرى منه أنه متفرغ بالكلية للعبادة
غير أنه كثيرا ما احسن تدبير أمور المملكة في الاوقات
الصعبة مثل كثير من الناس الاتقياء وقد سألنى ما ذا يحصل
لبلده اذا استولى الانكليز على اقليم بالجاب فأجبته
بأن السؤال عن هذا لا يعنينى البتة وكذلك لما سألنى
ولده عن ظفر الجيوش الانكليزية في مملكة افغانستان

اجبته بهذا الجواب بعينه وقد تعجب كثيرا حين اخبرته أن
الفرنساوية والانكليز دولتان مختلفتان وكان يعتقد قبل
ذلك انا معاشر الفرنساوية رعية القمبانية الانكليزية وقد انجر
الكلام على سيرة الايمبراطور نابوليون فكانوا يعتقدون
انه قد أضرم نيران الفتن مدة من الزمن فى وطنه وانه بعد موته
خمدت وعادت الى ما كانت عليه من الانتظام وبالجملة فجميع
الهنود على العموم لا يعرفون جميع الاسماء الافرنجية قديمة
كانت أو حادثة الارومة واسكندر وارسطاطاليس
وافلاطون وسقراط وسولون ونابوليون والقمبانية
الانكليزية والحكومة الفرنساوية والموسقو ويعتقدون
أن رومة هى القسطنطينية وهى اوروبا بتمامها من غير تمييز
فتقول مؤرخوهم مثلا ان الملك اسكندر الاكبر كان قد وفد
الى بلادهم من مدينة رومة وعندهم كلمة قمبانية من الالفاظ
التى تبهر العقول وتسحر الالباب فيعتقدون انها منطوية
على جميع فخار الدنيا وشوكتها ففسرت لهم ذات يوم معنى
هذه الكلمة الحقيقى وكيفية أصول جمعية التجار الانكليزية
الى صيرورتها دولة بالهندستان فاستشعرت منهم انهم
لا يصدقون كلامى البتة وقد أخذت الآن الموسقو فى
اشهار صولتهم وجلالة اسمهم فى تلك البلاد فتحدثت الهنود

فى شأنهم كثيرا ويظهر منهم انهم يحبون سماع أخبار هذه الدولة
وتفصيل حالها وكان اذ ذاك الوقت حرائة الانكليز فى مملكة
افغانستان كى توقف توسع شوكة الموسقو فى تلك الجهة
فكانت ارباب الحكومة الانكليزية ترخص لمن يؤلف كازتات
الوقائع فى أن يتكلموا على حسب مرادهم فى شأن الموسقو
وفى مقاصد اغارتهم على المملكة المذكورة ومالهم من
الجواسيس فى بلاد الهند وكانت تبيح لهم ايضا أن يوقظوا اهل
الافغانستان أن يأخذوا الحذر من الموسقو ولا يميلوا اليهم لان
حكومة افغانستان متلونة بل مستبعدة لكونها تستبدل
حكامها الظلمة بدون أن تتفكر فى نجاتها من ايديهم ومتى
تكلمت الهنود فى شأن دولة من الدول الافرنجية فأول
سؤالهم يكون عن معرفة مقدار ما عندهم من المدافع ولهم
ميل ايضا الى التكلم فى الامور السياسية وحيث كان لا المام
لهم البتة فى اى حكومة من حكومات الافرنج ويظنون ان
الانسان يهزأ بهم ويسخر اذا اخبرهم بالصدق فى شأنها تعسر
عليهم الوقوف على حقيقة الحال والوصول الى ما فيه لهم
المصلحة والغبطة وقد أخذت الاذن من ابن حاكم تلك البلدة
فى الذهاب لرؤية عين الماء الكبريتية التى توجد فى التزاماته
فوجدتها عينا غزيرة الماء جدا يتكون منها فى اقرب وقت

غدير كبير يقذف على شواطئه الكبريت فى حالته الطبيعية
ومنظر حوالى هذه العين من البقاع بركانى حيث يوجد فيها
مقدار عظيم من سولفات الحديد والنحاس (اى التوتيا)
وجميع ما بقى من الوادى حسن الزرع وعظيم الخصوبة جدا
وأرزها جيد حتى انه اذا غلى فقط فى قدر ولم يتبل بشئ من
البهارات كان لذيذ المأكل وينبت فيها أشجار المشمش
والبرقوق والتوت ويخرج منها ايضا نوع ردىء جدا من
التوت الافرنجى ذو أزهار صفراء وتزرع أشجار البرتقان
والرمان فى البساتين ثم ان اهل القبائل الجبلية النازلة بين
القرى وبعضها لم تزل فى حروب مستمرة مع بعضهم وقد
أخبرت فى طريقى أن خمسة رجال أو ستة قد قتلوا فى معركة
ويظهر من منظر رجال تلك القبائل الذين قابلتهم انهم ذووا
استعداد الى الحروب مع بعضهم فبمجرد ما أبصرونى فروا
خوفا من ان تقبض عليهم الخفراء الذين كانوا معى فيحصل لهم
الضرر

فبمجرد خلو الطريق وسلوكه اجتزت جبل پير بانجال
فرأيت انه يخالف مناظر وادى راجور الباهرة جبال ذات
قنات مملوءة بغابات أشجار الراتنج والسيول المهولة القرقعة
حال السقوط والشلالات النابعة من الصخور العالية وكان

اذ ذاك زمن ذوبان الثلج حتى انى مكثت مدة قليلة من الزمن منغمسا فى واد عميق يصل ماؤه الى خاصرتى فصرت مجبورا على أن اتمسك بالاشجار الصغيرة وفروع الاشجار الكبيرة فى مسيرى وكانت الثلوج تخلع من الجبل احجارا جسيمة فتسقط قطعا ويتعذر على الانسان ان يعرف كيفية سقوطها واتجاهها فيحترس منها فقد انقلب احد الخفراء على ظهره بسقوط حجر منها عليه وفى جبل بيربانجال محل منحدر جدا يرتقيه الانسان بواسطة عدة محال متوالية ينزل بها لقصد الراحة والقرى التى توجد فى تلك الجبال حقيرة فيرمون حول المساكن القاذورات ورمم الحيوانات فيشق على الانسان ان يجد محلا يضرب فيه خيمة صغيرة ومن العادة الجارية ان يذبح الانسان ذبيحة من المعز لاتباعه على حجر معد لذلك فى المحطة التى ينزل فيها قبل اجتياز جبل بيربانجال والجبل المذكور من هذه الناحية منظر جلالة وحزن فان النظر لا يبصر من جميع الجهات الا جبالا ذوات ثلوج واجمات من اشجار الراتنج ولا تجد فى جميع اماكنها انيسا ولا تسمع صوتا وانما تسمع فى مسافة بعد اخرى تغريدا مطربا لذيذا يشجى السامع يصدح به بعض الطيور المقيمة بهذه البقاع الخالية عن السكان

ولما وصلت الى رأس جبل بير بانجال جاءنى رجل قصير القامة جدا بأزهار ويقال ان له سرا عجيبا عنده شئ من السحر يقتدر به على اثارة هبوب الرياح والفرطونات وتسكينها ويتراءى منه بلزومه الصمت والتفكر انه يحاول ثبات ما يودع فى قلوب الناس من الاحترام لاسراره فأردت التكلم معه فلم يجبنى بشئ

ويوجد على راس ذلك الجبل حصن خال من السكان مدة الشتاء وسفح ذلك الجبل ممتد محيط به من جانبيه صخور مخضرة اللون لا يذوب الثلج من فوقها ابدا وقطره بارد جدا وتكتنفه غمامة كثيفة تحجب الطرف من ان يرى ما حول ذلك السفح وقد اشتد بى التعب فسقطت فاتر الهمة فوق احجار كان يسمع تحتها خرير عين ماء وكان ينمو بجانبها الحشيشة المسماة انجليقا (اى حشيشة الملائكة) فغشينا الليل وأخذنا فى السير فوصلنا فى جنح الليل الى محل يسمى على اباد وليس هذا المحل الا مجرد خان للسواح قد حماه من التدمير الكلى شدة الحاجة اليه بلا محالة فنزلت به فى غرفة مسودة بالدخان لم تسع الا فرشة واحدة لا يمكن الوصول اليها الا بالمرور من سرداب فكنت اصل اليها منه صاعدا بواسطة سلم وكانت الارض اذ ذاك مغطاة بالثلج المتدفق ومن سفح

الجبل قبل خان على اباد تنزل فى سهل عميق فكنت اكابد
المشقة فى مشاهدة المخاوف والاهوال فى اثناء وميض
البروق وقرقعة الرعود المفزعة فان موقع هذا المحل الذى اقمت
به عرضة لهبوب الرياح العواصف التى اهلكت كثيرا من
السياحين فقد وجدت فى الطريق آثار رمة رجل سواح
سيئ الحظ متمزقه بالكلية وكان لحمه الذى كشفته الثلوج
منذ مدة قليلة محفوظا حفظا تاما وبعد أن جبرنا على الاقامة
فى ذلك الخان مدة يومين سافرت مع سقوط الثلج وشكوى
اتباعى لزمنا أن نجتاز طول الطريق ثانيا سيولا منجمدة وكنا
نجد قناطر صغيرة من الخشب حادثة الصناعة لاجل عبور
السيول الصعبة ويوجد هنالك حصون تشرف على الاودية
وعلى الطرق متباعدة عن بعضها والجهة المقابلة من تلك
الجبال الى جهة الشمال مملوءة بحشائش كثيرة ويوجد ثم
كثير من الاشجار التى شوهتها نار الصواعق وفيها ايضا بعض
اشجار كانت قد أوقدت بسفح سيقانها السياحون النار
وأحرقتها للحاجة ويهبط الانسان مدة كثيرة قبل الوصول الى
الوادى ومشقة الهبوط اكثر من مشقة الصعود لكونه
منحدرا ومن هنا يسهل على الانسان أن يعتبر ببادئ الراى
قدر وادى كشمير العالى وقد وصلت اليه فى اثنين وعشرين

خلت

خلت من شهر ايار فوجدت فى اول محطة زربية مزروعة بشجر التفاح ومحفوفا بخنادق ينبت فيها الشوك وشجر الابخرة والبرسيم الاحمر فكنت اخال انى فى زربية من التزامات اقليم نورمنديا العليا ولكن قبيح منظرها احزننى عوضا عن ان يجلب الى السرور فصرت حينئذ فى اسوء حال من الغم والكآبة حتى ان التصورات الاولية التى خطرت بذهنى فى شأن هذه الاراضى الجميلة المنسوبة لمدينة كشمير تبدلت بالتأسف على مفارقة وطنى

ويمكن للسياح ان يسيح فى اى مكان أراده من هذه البلاد بواسطة حماية اهل الحكومة الانكليزية التى تتكفل بحماية ارباب الحكومة الهندية الاهلية فان نفاد اللوازم والمهمات وعروض المشاق التى لا يمكن درؤها فى السياحة لا يمكن تداركها الا بواسطة تلك الحماية ولا تكون الا اقل مما يظن الانسان حصوله فى شأنها فى هذه الآلات التى لم تزل باقية الى الآن على قلة التمدن ثم ان اقبح مدارارض هذه الجهة الدود الصغير الذى يكثر انتشاره فى البيوت وفى الاراضى ايضا فتراها دائما تتعلق بالانسان وصور البلاد وأهلها واخلاقها لا تشبه غيرها من باقى البلاد ويحصل باختلاف الامكنة وكثرة تنوعها فى الغالب ومن عدم الوقوف بمنزل يأوى اليه

الانسان ومن الحوادث المستقبلة التي يتوقع عروضها ميل ورغبة لاهاها في عيشة الرحالة النزالة ومن المهم تخطيط جميع هذه الجهات لقصد فائدة العلوم الطبيعية والمواليد وعلم الجغرافية وليس فيها شئ يحتاج وصفه مما يتعلق بعلم الارشيولوجيا (اى علم الآثار القديمة) ولا بعلم الادبيات والتواريخ اذ لا يوجد الآن فيها آثار قديمة ولا كتب ولا اعلام وهذا امر غريب حتى انه يوجد في وادى كشمير وكذا في الجبال الحافة به من جهة الشمال آثار قديمة واماكن معدة للحج وروايات تتعلق بالآثار القديمة الهندية وحيث كان يشاهد في وادى راجور كثير من بقايا الحصون فلا مانع من ان يعلم ببادئ الرأى ان رؤساء ذلك الوادى يحارب بعضهم بعضا وانه في اثناء التعكرات المستمرة بهذه البلاد يتقرض جميع آثار علم الآداب والانطيقة وكنت أتفكر في وحدتى وانفرادى بهذه البلاد وانه ليس معى من يفيدنى من الاخبار الصحيحة التي تخص هذا الوادى وكان يمكن بالوسائط والوسعة ان اكون سعيد الحظ ببلوغ الاخبار اللازمة لى في هذه الاسفار

(الباب السادس)

فيما يتعلق بالكلام على مدينة كشمير وعلى القبة المشيدة

فوق الجبل وبيان معتقد سكان هذه المدينة فى حالة واديها الاولية وذكر ما يتعلق بسيدنا سليمان عليه السلام ووصف كاسبيابه وعلى الآثار القديمة وعلى الراقصات وعلى پندى كشمير (اى علمائها) وذكر الموانع التى عاقتنى عن اتمام هذه الرحلة امام مدينة كشمير فانها تمتد بطول نهر جالوم وبيوتها تتخذ من الخشب على قواعد من احجار النحت وشبابيكها مغلوقة بواسطة انواع من الخشب منفرجة بحيث يدخل الضوء منها وهذه الشبابيك متنوعة الصور والرسوم فيرفعونها بحسب الطلب وتورق مدة الشتاء وسطوحها مغطاة بالطين فتنبت فيها الحشائش والازهار وبهذه المثابة جميع بيوت الوادى ومن بعيد يرى لجميع المدن والقرى منظر بهيج وبطول شاطئ النهر احجار جسيمة متراكمة من احجار النحت تتكون منها ارصفة وجميع المساجد متخذة من الاحجار المنحوتة وهى من آثار الهياكل الهندية القديمة ماعدا المسجد الاعظم فانه مشيد بالخشب ويوجد على عدة احجار صور على ثلاثة منها نقوش منها نقش فى النهر لا يشاهد الا وقت هبوطه الزائد والقناطر الموجودة على هذا النهر مشيدة بالخشب فوق دعائم من احجار ولهم حوانيت كالحوانيت المصنوعة فوق القنطرة المسماة نوف (اى

الجديدة) ومن ألطف ماتوجد وقت المساء الرياضة والنزاهة على شاطئ هذا النهر فان ظلام الليل يخفى عن اعين الناظر وساخة المدينة واهلها ويشاهد الانسان بعض شبابيك داخل البيوت المظلمة تمتاز عن ماعداها بالضوء والنور فيظهر للمتنزه اجمل والطف الاشكال العجيبة الباهرة التى تلعب بالالباب فى تلك البلاد

ويشرف على مدينة كشمير حصن يتراءى من بعد انه بشع المنظر مخيفه وبأسفله قصر يكاد ان يكون جميعه محفوظا وحوالى البلد بحيرة لطيفة محفوفة بالجبال ومملوءة بالنباتات والازهار غير أنها مضرة بالصحة جدا بسبب عفونتها ويصعد منها رائحة الطين المنتنة عند يبسها ونشافها ويصب فيها كثير من العيون فتارة يصب ماؤها فى النهر وتارة تتصاعد وترجع الى حيث أتت بسبب فيضان المياه المجاورة لها وعلى شرقى شاطئ هذه البحيرة قبة هندية شاهقة البناء فوق تل وبجوارها مسجد يضاهيها غير أنه قد عفى بالكلية اما هى فلم تزل الى الآن باقية على ما كانت عليه وانما يشاهد لها بعض ميلان كأنها اضطربت برجة قوية وتشتمل هذه القبة على شجرة تسمى باللغة الهندية لانغا ورأس تلك القبة على هيئة ناقوس

وتطلع

وتطلع الهنود السياحين على المحل الذى كان النبى سليمان عليه السلام قد أمر المياه فيه ان تغور وتزعم ان وادى كشمير كان سابقا بحيرة فصار على حين غفلة ارضا معمورة فالمسلمون منهم ينسبون هذه المعجزة الى سليمان عليه السلام وغيرهم يعزونها الى كاسيبايه اعنى الشيطان المتمرد الشهير عندهم باسم مونى وهو الذى كان قد خرق ذلك الوادى ووصله ببارموله وربما قطعنا النظر عن الخرافات وقلنا ان الوادى كان بحيرة وان مياهه المحصورة تمر على حافاتها فآل امرها أن افتتح لها مجرى من بارموله التى ارضها منحدرة جدا بموجب الرواية المأثورة عنهم وذلك أليق بالنفس واقبل للعقل ولم تزل الاهالى تشاهد الى الآن نقصان مياه تلك البحيرة بالتدريج ويطلعون السياح على سهول متسعة يزعمون انها كانت غدرانا وكثير من العيون ماغار وجف ماؤه بل صار لا يوجد للمياه اثر فى بقايا المدن المتسعة جدا التى بالنظر للوادى الكثير المياه لا يصح ان يقال انها بنيت فى أماكن لاماء بها وارض كشمير مشهورة عند الهنود بكونها مقدسة ولها ايضا عند المسلمين مزيد احترام ولكل طائفة محل فى هذه الارض للحج واتقيا وسير مأثورة عندهم غير أن جميع مافيها من الآثار القديمة الدينية يعزى الى الهنود ويطلعون

السياح على لحية كبيرة يزعمون انها لحية نبي وفي البحيرة حجر
على صورة رجل كان انسانا ذاروح فسخ صورته ولي من
المسلمين كان قد غضب عليه ولهم آثار أغرب من هذه
الآثار وهي هياكل عظيمة وبقايا ابنية جليلة فاقت على
اغتيال نفوس اعاديهم الذين كانوا اقدهموا بهدمها فعجزوا
عن ان يقاوموا متانتها وأغلب المساجد التي شيدها المسلمون
بجوار الهياكل الهندية ليست الآن الاخربة مع ان تلك
الهياكل لم تزل الى الآن باقية على ماهي عليه
والقصور الجديدة التي انشأها ايمبراطرة الموغول في غاية
من الحفظ لاسيما البساتين والقصور العجيبة المنسوبة لكل
من الملك شاهباز ونيشاهلباز الذي لم تزل حكومته
آخذة في الاهتمام بحفظها من التلف والدمار اما البساتين
فهي على صورة مدرج وكل دورمنها يشتمل على ابنية سواء
كانت كثيرة الاهتمام اولا وفي الوسط عين ماء يتكون منها حال
جريانها شلالات وبرك وفساقي ذوات فورات وتحت الشلالات
حفر صغيرة معدة لان تظهر فيها الاضواء المنعكسة في مياه
تلك العين ذات البريق واللمعان ويبيح اهل تلك البلاد للنساء
الراقصات ان يغتسلن في تلك الحياض على صورة عرائس
البحر فان لهم ميلا عظيما في مشاهدة اغتسالهن بهذه المثابة

وفى مشاهدة لمعان اشعة تلك العيون وبريق الاضواء
المنعكسة فى المياه وصوار يخ البارود لامعة جدا فيطلقونها
غالبا فى بيوتهم لقصد التفرج عليها حتى فى غير المواسم
فيجمعون فى هذه الملاهى بين النساء والازهار والملابس
الفاخرة وآلات الطرب والرقص ويحبون الزخرفة والمبالغة
فيما يخص الملابس والمواسم والابنية والاشعار وبانهما كهم
على هذه الملاهى المعدة لتنزيه اعينهم وحواسهم الغير المهذبة
يعلم من غير شك انهم اضاعوا ما أودعته القدرة الالهية
فى النوع الانسانى من الذوق وخاصة الاحساس ومتى أقام
الانسان زمنا طويلا فى المدن الكبيرة بين اهلها آل أمره الى
ان يتعود على استعمال المجازات فى تراكيب كلامهم
وعلى التصنع الذى يزينون به دواوين اشعارهم الفارسية
والذى يظهر أنه هو الذى يبعثهم على الالتفات لذلك .
ومن المستحيل فى هذه البلدة الممدوحة جدا بجمال نسائها
ان يبصر الانسان اناسا مشوّهين الخلقة والصورة كما يشاهد
فى الحارات والنساء الممتازة قليلا عن غيرهن لا يمكن لاحد
من الرجال أن يشاهدهن بخلاف غيرهن من الراقصات
وحيث ان الحسان منهن يرسلن الى مدينة لاهور وغيرها
من الهند ولا يرجعن الا بعد ما يعقدن المحاسن التى يستملن بها

القلوب الخالية عن الاشغال لا ينبغي ان يحكم عليهن بشئ ما بالنظر لكونهن في مدينة كشمير ولم ار في الراقصات التي جئن لزيارتي جميلا الا امرأتين او ثلاث ومع كونهن ذوات شعور حسنة التضفير وسود العيون وظريفات التقاطيع وصاحبات حلى وملابس فاخرة واغاني مطربة ورقص لطيف فلا بد من منفر يصدرن به من القبيحات بحيث لا يحصل للانسان منهن استلذاذ ولا مأرب ويتعاطين في آن واحد حرفة ضرب الآلات المطربة والرقص ومنادمة العشاق ولهن اعتبار عظيم بين الهنود حتى ان الانسان الذي لا يقبل عليهن يعد ردىء التربية جدا وغناهن لطيف يهيج النفس ويغلب على العقل متى كان دالا على الحب والعشق ويظهر للانسان من اول وهلة انه غريب الشكل ولكن مع التدريج شيأ فشيأ يتعود عليه ويصير مألوفا له ويتطبع به واما الكحل الذي يكتحلن به فانه يطول شكل اعينهن والاكتحال يكون لقصد التجمل والزينة وايضا فهو وسيلة للتوقي من الرمد الكثير الوقوع في هذه البلدة بسبب البرك الراكدة ويتعلمن حال الصغر تصنع جلب المحبة والعشق والحياء والغيرة ويفصحن عن هذه الخصال بطريقة لطيفة أقرب للحقيقة جدا بحيث يتعذر على الانسان الاحتراس من مخالطتهن وحفظ

نفسه من الميل اليهن والوقوع فى احبولتهن وليس لهن هيئة قبيحة مصطنعة كما هى عادة الراقصات الافرنجية اللاتى يفقن فى الجملة الراقصات الهندية فوقانا عظيما فى الظرف والخفة واهل المشرق مع كونهم يتزوجون بنساء عديدة لا يمتنعون فى الغالب من ان يدعوا هؤلاء الراقصات فى مواسمهم ومجتمعات انسهم لما ان الرقص والغناء ممنوعان رأسا من تربية المحصنات من النساء

واما الراقصون من الذكران فيتزيون بزى النساء فى ملابسهم ويجتهدون من صغرهم فى تقليد النساء فى التصنع والتكسر حتى انه ربما اشتبه على الانسان ان يميز كونهم ذكورا اواناثا وهم فى الغالب فرقة من الحرف السافلة التى ترقص وتلعب امام الناس من غير تستر فى محل ويلعبون ايضا ألعابا مضحكة مختلفة النوع فى التقليد على اختلاف طباع الناس الذين يقلدونهم وجسارتهم على السخرية والاستهزاء بالدولة وضباطها عجيبة وذلك لما ان التطاول وقلة التحاشى من اخلاق الهنود بحيث لا يخشون عاقبة ذلك من الذم والاستهزاء بهم

ولما وصلت مدينة كشمير وجدت بها رجلا يسمى ميرزاحد وهو المنشئ القديم بالحاكمون فأفادنى باشياء

تخص بلاد كشمير وأخبرنى بالاماكن التى يرغب فى الاطلاع عليها وبالنقوش والآثار القديمة والاطلال وأحضر لى بعض شخوص قديمة ولكن لسوء حظى وجدت رجلا مهابا وهو حضرة الضابط الجليل المسمى قوينغام معاون الحكمدار وكان قد أخبره الحكمدار بانه سيحضر عنده عن قريب ووصاه بان يجمع له عدة شخوص فاخذت صورة النقوش القديمة التى لم يسبقنى أحد بأخذها وصورة نقش كان على مسجد وصورة النقش الذى كان على شاطئ النهر وصورة بعض حروف كانت منقوشة فى جدار حائط منزل

وقد أحضر لدى اشهر علماء مدينة كشمير فى المعارف فرأيته لا يكاد يقرأ بل لا يفهم كلمة مما يقرأه وهو وابنه على حد سوا فى ذلك فقد اسمعنى ولده بعض اشعار من ديوان سيسوبالاواده بصوت مضطرب وحدثنى بتاريخ هذه البلدة الذى كان قد اعطاه للسياح موركروفت قائلا لى انه لا يوجد الآن غيره فى مدينة كشمير من التواريخ المتعلقة بها وهذا التاريخ هو المعروف بتاريخ رجاترنجيني وطلبت منه دفاتر اسماء الكتب فأجابنى بانه لا يوجد منها الآن شئ فى تلك البلدة وذلك لان علماء ملك مدينة لاهور

قد نهبوها عند فتح كشمير وكان اعظم عالم من علماء الملك
قد أخبرنى بأنى لا اجد كتبا فى مدينة كشمير ولكنه لم يفصح لى
عن سبب تعذر وجودها فى هذه المدينة
والقبول الذى شاهدته فى مدينة كشمير لم يمكث زمنا
طويلا وذلك لما أن اجازتى ملك لاهور ووزيره الصدر
الاعظم لم يساعدانى بالكلية على جل مقاصدى وقد
وصفت لى بعض اماكن يرغب فى الاطلاع عليها ولكن
لم يمكنى التفسح فى داخل الوادى فضلا عن أن اصل الى
تلك الاماكن ولزمنى أن انزل فى المحطات المعينة لى فى الاجازة
مع التدقيق الكلى ولتغيير تلك الطريق المعينة لى فى صورة
الترصية لزمنى أن اعرض للحاكم فى هذا الشأن وهو
لم يجاوبنى الا بعد يومين او ثلاثة وعين لى طريقا اخرى
احدثت لى مشاق أخر
وبالجملة فكانت صورة اجازة الملك مشتملة على الاحترام
والادب الكلى فى حقى ومكتوبة بأبلغ عبارة فارسية وكنت
دائما بين هؤلاء الملل كبحر المعارف المحيط المتلاطم الذى
لا يعرف له ساحل وكنت أفخم علماء كشمير واكسف
شمس علومهم ولم اتكلف لذلك شيأ حتى انى كنت بينهم
كأفلاطون عصرى وارسطاطليس اوانى وسقراط زمانى

ولسان الفارسى هو المستعمل عندهم فى المكاتبات
وهو لسان الادب والتمدن بين رجال الدواوين الهندية
ويمتاز عن غيره لكونه محدودا ولا يتغير دائما كلسان
الهندستان الآن الفارسى غير مفهوم عند العامة من
الهنود

(الباب السابع)

فيما يتعلق بسياحتى فى داخل وادى كشمير وبمدينة پنپور
وبالبركة الموجودة بقربها وبهيكلها الهندى وبحدود غيطانها
وآثارها ونقوشها القديمة وبمدينتى بيدجبيار واسلام اباد
والآثار القديمة التى توجد فوق سفح جبلها وبمدينة موتون
ومغاراتها وبمدينة ورناغ وبالحجر المتكون من النار
والثلج وبمعادن ذلك الوادى وثعابينه ودبابه وسباعه ونموريته
الكثيرة الوجود فى كشمير وتخطيطات السياحين
الاول لهذا الوادى وخبر موت الملك رانجيت سنغ
وبالنساء السخية والهندية اللاتى يلقين بأنفسهن فى النار
عند احراق ازواجهن وسياحتى فى الغرب من هذا الوادى
والهياكل القديمة وبمدينة بارموله وخط كامراج
وقنة جبل بالارامة وورشة الشيلان الكشميرية
ومحصولات وادى كشمير وعظمة نتائجه وفقر سكانه ورغبة

السياح فيما فيه من الآثار وآداب اللغة القديمة وآداب الهنود

ومدينة پنپور على البعد من مدينة كشمير بفرسخين حال الصعود فوق نهر جالو جهة منبعه وقبل الوصول اليها تجد بركة في وسطها هيكل ولاجل أن آخذ صورة هذا الهيكل ركبت زورقا رديئا فانغمس بي في الماء فاحتملني الملاحون على ظهورهم لكي ارجع ثانيا الى الشاطئ فكنت اراود نفسي حالة الرجوع اليه ان اركب زورقا احسن من هذا فلم يتيسر لي ذلك فاقتصرت على تصوير الهيكل من بعد أما شكل بنائه فهو مخالف لشكل هياكل الجهات الاخر من بلاد الهند فان سطوحه مائلة جدا مع ان سطوح بيوت مدينة كشمير تكاد أن تكون مستوية وهذا الانحراف ضروري بالنسبة لبلدة كثيرة الثلوج وفي سفح الجبل المجاور للهيكل بقايا مدينة كبيرة من المدن القديمة واشجار جسيمة من اشجار السنجاس ولا يوجد هنالك الآن شيء من العيون المائية ولا يخلو الامر من أحد شيئين اما أن تكون عيونها غارت وانقطعت بالكلية او تحولت مجاريها من جهة الى اخرى منذ مدة وبالقرب من تلك البركة اعمدة وهي بقايا مسجد قد عفي منذ مدة طويلة وقد شيد المسلمون مع التنظيم

مسجدا بقرب الهيا كل الهندية وهذه الآثار مملوءة بالثعابين فكنت اشاهد من سائر الجهات الافاعى مولية تنجو بنفسها وتدخل فى اوكارها وشاهدت فى مدينة بنبور ثعبانا عظيم الجسم على حائط وكانت تدور حوله العصافير على شكل دائرة فكأنها مغرورة به كغرور الفراش بالنار فقتله جماعة بعكازة ثم قبضوا عليه من ذيله وصاروا يحركونه تحريكا عنيفا حتى تقايا من جوفه عصفورين كان قد ابتلعهما

وقد رحلت من مدينة بنبور الى مدينة وانتبورا ويتوصل اليها بواسطة غدران تزداد ماؤها فى السنة القابلة اعظم من زيادة العام الماضى ويصادف الانسان عدة عيون ذات مياه كبريتية وفى الغيطان حدود مرسوم عليها صور ويوجد منها عدة حدود منصوبة بجوار بعضها وعلى فرض انها كانت متخذة سابقا بيان حدود الاملاك الخصوصية المتوارثة فليست الآن لهذا الغرض وبقرب مدينة واتنيبورا اطلال مدينة عظيمة من المدن القديمة ولا يوجد فيها الآن شئ من العيون بل ولا اثر ماء اصلا وقد صعدت الى محل فيه شجرتان من اشجار التوت ولم يصعد معى أحد البتة فأقبل الى جماعة قليل خفيران فى غاية من الخوف والانزعاج بسبب دب كان قد خرج من موضعه وبقيت

آثاره

آثاره ويوجد فى سفح اطلال تلك المدينة القديمة اطلال هيكلين هنديين أحدهما لم يزل محفوظا الى الآن وعليه نقوش نقص بعضها وانمحى بالكلية

وقد شيد المسلمون بجوار هذين الهيكلين مسجدين ومتى سار الانسان جهة الشمال وجد بحذاء الجبال فى وسط الساحل بقرب عين ماء مظللة بشجرة دلب قديمة نقشا سانسكريتيا واذا ارتقى بالمجاهدة والمكابدة فوق ذلك الجبل الشامخ المرتفع على شكل قنة وجد على سفحه صنما عظيما فاذا نزل بعد ذلك بواسطة السلم المنحوت فيه رأى كهوفا فيها صور رجال وثعابين وكان قد وصف لى هذا المكان رجل هرم من علماء البندتية هذا ولم يبق عندهم رواية تدل على هذا المكان

وفى مدينة بيدجبيار نقش قدره سطران على مسجد وقد صار الآن فى أسوأ حال من تقادم الزمن وتوالى الايام عليه فيتعسر على الانسان قراءة بعض حروفه ولا يفهمه الامع المشقة والتعب

ويوجد بقرب ذلك المسجد مسجد آخر مبنى فى بركة بجوارها كهوف عميقة منحوتة فى الصخر وبابها مغلوق فيفتحه درويش مسلم موكل بها وحين دخلتها صرت أضرب الخفاش بعصاى وكانت تملأ القباب فتعرضت العساكر

السفينة لتمنعني من ضربها ولو كانت هذه الاساءة حاصلة منى فى حق انسان لما أظهروا من أجله الرافة مثل ما ابدوه فى حق هذا الخفاش

وأجل المدن بعد مدينة كشمير مدينة اسلام أباد ويصنع فيها كثير من الشيلان الكشميرية ويعتنون زيادة بالابسطة المسماة باتو وهى نوع من القماش الثخين تتخذ منه أهل تلك المدينة ثيابهم وبيوتهم مبنية بالخشب فوق قواعد من الحجر والاجر وسطوحها مغطاة بالطين والنباتات والازهار ويرويها عدة منابع منها اثنان كبريتيان وكذلك يرويها نهر جالوم المشيد عليه قنطرة من خشب وكل من هذه المدينة وأهلها ذوو ساخة كريهة

وجميع الوادى من كشمير الى مدينة اسلام أباد فاخر نفيس جدا وسهوله مملوءة بالغابات والتلال الجبلية ومروى بالعيون المائية القوية التى ينسر منها الطرف بعد ملاله من رؤية بلاد الهند العالية الغير المتنوعة فلذا أصاب من وصف مدينة كشمير بكونها جنة بلاد الهند ولا يخفى ما فى شغف الهنود ولغطهم الحاصل فى شأن هذا الوادى اللطيف ومع ما قيل فيه من المدح والاوصاف الحميدة لا يفوق شيأ من اقاليم مملكة فرانسا الظريفة

وبالبعد

وبالبعد بفرسخين من مدينة اسلام أباد تجد على سفح مرتفع آثارا فاخرة مشحونة بتصاوير على صورة النمورة والجبال التي حولها منعطفة عليها على شكل دائرة مركزها تلك الآثار وكلما سألت أهلها عنها يقولون انها آثار كان قد شيدها جماعة الكوروسية والباندوسية وهما اسما عائلتين من القدماء قد ذكرا في قصائد حماسية منظومة باللسان السانسكريتكي فاستأصلت احجارها تفتيشا واحدا بعد واحد مع امعان النظر فلم أجد عليها شيأ من النقوش وهذا الاثر موضوع في حوش مربع وأبوابه فاخرة ومملوءة بالتصاوير وحيطانه مبنية بالاحجار المنحوتة الكبيرة والقاعة الوسطى التي في داخل ذلك الحوش صغيرة جدا بحيث لا يتوهم انها كانت معدة لملاقاة الناس وكذا جميع هياكل كشمير بهذه المثابة ويوجد زيادة على ذلك ثلاثة هياكل مشيدة في وسط بحيرة وهذا هو السبب الباعث على عدم دخول عامة الناس فيها بكثرة وهذه الهياكل تشتمل على اصنام بمقتضى روايات محفوظة عندهم

واذا هبط الانسان جهة الشمال الشرقي وجد مدينة موتون وفيها بركة مقدسة محفوظة بمساكن تعمرها الدراويش ويحفظ فيها كتاب الديانة المسمى غرانت واسماك

هذه البركة مقدسة ايضا ومما يعد عندهم من عمل الخير الموجب للثواب كون الانسان يرمى لها بعض اشياء تتغذى بها وعلى البعد من تلك البركة بمسافة تجد مغارات محفورة فى الصخرة يدخل فيها الانسان بواسطة ابواب منحوتة على شكل مثلث ويوجد فى داخلها اشجار تسمى لانغا وهناك مغارات اخر لايدخلها أحد الآن ويقال انها متسعة جدا وكثير من العيون المائية تسيل وتجتمع فى محل يقال له چالوم فعما قليل يصير نهرا صغيرا تجرى فيه السفن

وفى مدينة ورناغ بقايا قصر كان قد شيده ملك يقال له جيهانغير ولم تبق منه الا قبة وسط حياض متكونة من انصباب مياه كثيرة فيها وفى وسط هذه الآثار صنم على صورة امرأة تسمى غانسه وقد وجدت فى طريقى صنما على صورة الساحرة المسماة بروانى

ويوجد فى هذه الجهة من الوادى كثير من البرك الصغيرة المتكونة فى عدة عيون ويعتبر كل من المسلمين والهنود تقديسها ويربون فيها السمك معتقدين أنه عيال الله فقلت لهم اننا جميعا عيال الله ولم يمكنى أن انال الافصاح منهم عن العبادة التى تخص هذا السمك الذى يعمر تلك العيون

ويعدون من الغريب عندهم كون حجر من النار وحجر من الثلج أما حجر النار فهو قطعة عظيمة من الصوان المسمى سيلكس واما حجر الثلج فهو فى مغارة مظلمة يوجد فيها ماء مثلج يبلغ عمقه نصف الساق ولا يرى فيها شئ آخر البتة وعلى فرض أن ذلك الحجر الثلجى موجود فيمكن أن يكون ثلجا منجمد ترتفع رأسه فى تلك المغارة وان مزاج هوائها لم يصل الى درجة بحيث تذيب الثلج المنجمد

وفى تلك الجبال كثير من نبات الهليون والتوت الافرنجى (المسمى بالدليك) وهما صنفان من افخر الفواكه يجهلهما سكان ذلك الوادى

وقد شاهدت فى طريقى معدنين من الحديد كانا يستخرجان من الارض ولكن اذا اراد الانسان الدخول فى موضع هذين المعدنين لا يمكنه الوصول الا حبوا ولا يوجد فى ذلك الوادى ابنية ولا مجازات ارضية وفيه المعادن بكثرة فترى الرجال الذين يستخرجونها بمجرد ما طالت عليهم الاشغال فى حفر مسافة للاستخراج تركوها واخذوا فى استخراج غيرها

وفى جوانب تلك الجبال محال عظيمة الشهرة من جملتها موضع يعملون فيه مناسك حجهم فيهرع اليه كثير من الدراويش

فى شهر اب ولابد للانسان من ان يمشى فوق الثلج عدة ايام
وكنت قد اخبرت بالاخطار والمشاق الموجودة فى تلك الطريق
فلما رأونى مصرّا على ذلك آل امرهم الى ان امتنعوا من أن
يأذنوا لى بالسفر فيها ولم ازل فى جميع هذه الطريق كالمسجون
حيث كنت مجبورا على ان اقصر اسفارى على مشاهدة
الاماكن التى وصفوها لى بوجه مخصوص ولم يكن احد معى
من اهل تلك البلاد وذلك ان جميع الرجال الذين صاحبوا
غيرى من السياحين ورأوا انهم لم يكتسبوا منهم شيأ
اعتذروا عن ان يصاحبونى ومتى لم يكن مع السياح رجل
معتبر من اهاليها تعذر عليه ان يقف على شئ من اخبارها
حتى انه كان لا يمكنى ان اعرف اسماء القرى وايضا فكانوا
يتجسسون على كلامى وافعالى ولو قليلة جدّا ويخبرون بها
حاكم تلك البلدة الذى يرسل الاخبار الجارية الى مدينة
لاهور وكان يسلك فيها مسلك منشئ الوقائع حيث كان
يكذب فيها الاجل ان يرغب من يطالع عليها فقد انتهزت فرصة
لتحقيق كذبه من اناس اتوا ليصاحبونى
ثم انى رجعت الى كشمير بجانب الجبال الشمالية ومتى
غشى الليل انتشرت الذباب والسباع فى السهول فلا بدّ من
ان توقد نيران حول الخيام والخيول لطردها فاتفق ذات يوم

اثنا وجدنا بقرة قد افترسها نمر على البعد من خيمتنا بقدر خمسين قدما

وقد اطنبت فى الكلام على الثعابين والوحوش الضارية لغرض خصوصى وهو أن السياحين الذين ساحوا قبلى فى هذه البلاد انكروا وجودها بالكلية لئلا يشوهوا حقيقة تخطيطات ذلك الوادى الظريف العجيب الشهرة والافالثعابين التى توجد فيها كثيرة وخطرة جدا واخبرنى الشاه صاحب الذى هو محب لاهل اوروبا ان لدغتها تفضى الى الموت بعد مضى بعض ساعات وسألنى عن دواء يعمل لمنع تأثير سمها واما السباع والنمورة والدباب فتدخل فى داخل القرى وتفترس ما تجده من المواشى وفى مدينة كشمير مضرة اخرى عظيمة وهى وجود الدويدات الناشئة عن وساخة سكانها فانها تدب وافى سائر الاماكن ويوجد خصوصا بقرب الجبال نوع من الذباب الصغير ينكب منه مقدار لا يحصى على الناس والخيول ولا تدع لاحد راحة منها والغدران الصغيرة يكثر فيها الدود المسمى بالعلق ومنها نوع يمكن ان يعد من الهوام السمية ويتاذى الانسان ايضا بالناموس الهندى الذى لا يطاق طنينه ولا لذعه وفى الغيطان وعلى الاشجار ايضا كثير من الوزغ السمى وهذه البلاد

رديئة الهواء جدا ففى البلاد الواطية منها يكون الانسان
عرضة للحمى الدائمة حتى انى بل وجميع الرجال الذين كانوا
معى لم ينج احد منهما وكذلك يكون الانسان عرضة لان يصاب
بانواع الرمد الناشئ عن كثرة مياه البركة المنتقعة فقد صرت
فيها مدة خمسة عشر يوما اعمى لا ابصر شيأ من جميع الجهات
فلا يخفى عليك كما اسلفته ان ذلك الوادى ليس بالكلية عين
الجنة التى ذكرها الخواجه برنه وزعم انه لا يجرى فيها
الأنهار من لبن وعسل ولكنه قد اقام زمناطويلا فى مدينة
دلى (ويقال لها دلهى) التى هى فى واد حار يابس ولا شئ
ابهج للطرق من منظر وادى كشمير على العموم ومن منظر
جبالها الشامخة المغطاة بالثلج وتلالها المخضلة بالآجام
وفلواتها المروية بالغدران الصافية المياه والمغطاة بالخضراوات
والازهار الجميلة

ولما رجعت الى كشمير اخبرت بوفاة الملك رانجيت سنغ وان
عشر نساء قد احرقن انفسهن معه وذلك لأن النساء السخيفة
قد تعودن على هذه العادة الهندية التى هى ناشئة عن الحمية
الدينية وتخمد نارها بتداول الزمن وبرهان ذلك ان الانكليز
قد نجحوا فى ابطالها فى جميع البلاد التى انقادت لهم وبمقتضى
الشرائع الهندية ان المراة اذا تزوجت بعد فقد بعلها تكون

مدنسة

مدنسة العرض فيحكم عليها على التابيد ان تقضى ما بقى
من عمرها فى العزلة والنفى
والسبب الباعث لكون النساء يلقين بانفسهن فى النارهو انه
اما لكونهن يصرن مدنسات العرض ويقضين زمنهن
بهذه المثابة اذا تزوجن اولما يتحققنه من السعادة الاخروية
اولشدة تعلقهن بالمفقود فعند ذلك يتجملن باجمل الثياب
ويتحلين بما يتملكنه من الحلى الذى هو كسب للقسس
ويفهم ببادئ الرأى ان تحسين القسس هذه الفعلة القبيحة
وتشجيعهم لهن انما هو لاجل عودها بالمنفعة عليهم ولما مات
نونيهال سنغ الذى هو حفيد رانجيت سنغ حضر
الانكليز وخلصوا امرأة ونحوها من الاحراق
وبعد أن مكثت عدة ايام بالمدينة كالمسجون سافرت ثانيا
لاطلع على الجهة الغربية من الوادي فوجدت فيها عدة
هيا كل هندية متفاوته فى الحفظ وكلها على الاطلاق مبنية
على هيئة بنيان مدينة بنبور ومنها هيكل فى جزيرة صغيرة
وسط بحيرة يحتاط به كثير من الاحجار على شكل جسر
وعندهم آثار قديمة تدل على انه كان سابقا فى محل
هذا الهيكل مدينة عظيمة ومحيط هذه البحيرة يبلغ عدة
فراسخ وكل من سافر فيها يكون عرضة لهبوب الفرطونات

وعلى شواطئها من جهة الشمال جبل يخرج منه فى اوقات اصوات كأصوات المدافع وتزعم الاهالى انها تسمعها فى جوف الاراضى متى اقتضت القدرة الالهية تغيرا لحاكم فقد سمعوها قبل موت الملك رانجيت سنغ بعدة ايام وقد سمعوها ايضا مرة ثانيه وقت انتصار الانكليز فى مملكة افغانستان عندما كانت الناس تلغط بان الانكليز يريدون الاستيلاء على اقليم بنجاب فحصل بعد ذلك بمدة قليلة موت الامير غوراق سنغ ابن الملك رانجيت سنغ وخليفته فعد تصادف هذين الامرين من الغريب ومياه تلك البحيرة لطيفة جدا حيث لم يشم منها رائحة الطين المنتنة التى تشم من بحيرة كشمير وعلى شاطئها نبات يسمى سانغراه وهو نوع من جوز الماء يتقوت به فقراء الاهالى ويدخل على الخزينة منه مبالغ جسيمة من الروبيات (تبلغ ٢٥٠٠٠٠ فرنك)

وفى مدينة بوطون هيكلان آخران بجوار بعضهما وهيكل آخر فى مدينة تيغور داخل حصن بل هو الحصن نفسه

وبالجملة فيوجد هيكل آخر بقرب مدينة برموله على شواطئ نهر جالوم فى واد ضيق وسط جبل ذى قنه

وملآن بصخور يعلوها غابة من اشجار الراتنج وليس
فى هذا الهيكل شئ البتة من التصاوير وبحسب الحدث
والتخمين ان احترام المسلمين له انما هو لتجرده عن التصاوير
والآن تظلله بأغصانها اشجار صغيرة وقد اخبرنى رجل هرم
من العلماء انه كان يعرف سابقا فى الجبال المجاورة لتلك البقاع
هيكلا ونقوشا قديمة غير أنه لم يذهب اليه احد من مدة طويلة
وانه لا يمكنه ان يهتدى الى الطريق الموصلة له وقد وصف لى
بوجه عام نقشين كانا بقربهما فوجدتهما فى وسط غيط أرز
بعد طول البحث والتفتيش وبجوارهما سبع عيون صغيرة
ويسمى محلها ساث ريشى وبقرب فوتيغور كثير من
حدود الارض مرسوم عليها صور ويفصل خطها جبال
مظللة بالاشجار وينحصر فى واديها اودية صغيرة ويوجد
فيها بقايا مدينة عظيمة جدا وصور آلهة هندية لاسيما صورة
آلهة الحرب ففيها حجر ضخم منتصب على صورة الههم المسمى
تجاطورموغا

ويتصرف نهر جالوم بقرب مدينة برموله من محل
ضيق جدا فيجرى مع القرقعة فوق الصخور الجسيمة ويقتلع
منها قطعا من شدته ويوجد فى نواحى برموله بتجاويف
الجبال كثبان رمل

وبين مدينتى كشمير وبرموله مدينة تسمى صوپور وفيها حصن مبنى على طرف قنطرة من خشب وقد منعنى خفير الحصن من الدخول فيه بأمر من حاكمه فتشاءمت من تلك الاساءة ولكن عما قليل عرض لى ما يزيل الهم والترح ويجلب السرور والفرح وهو أن حاكم كشمير ارسل الى كتابا محببا للنفس وفيه يأذن لى بالاطلاع على خط كامراج والاولى ان يقال انه حصن مشهور فى هذا الوادى جلس فيه الملك رامة للاستراحة بعد فتح جزيرة لانكا (اى جزيرة سيلان) وكانت المنة فى هذه الاجازة لجناب الجنرال وانتوره حيث كنت فى فكرته دائما فكتب للحاكم فى شأن ذلك ومع هذا فانه لا يبعد عليه ان يكتب لى قبل ذلك بمدة وخط كامراج كثير الاشجار ويرويه نهر يسمى باسمه ويضل الانسان به لما فيه من التلال الجبلية والاودية الصغيرة الشبيهة بالتيه ويتغير فيه مزاج القطر فى كل وقت حتى انه فى مرحلة واحدة نزل على المطر الحار ثم الثلج المذاب وقد نزلت فى شهر آب بأرض مغطاة بالثلج فوجدت على البعد منها بمسافة قليلة مزارع الارز وشاهدت اجتناء كروم العنب بعد نضجه ووجدت فى مسيرى انسانا كان معلقا فى شجرة غير أن الذباب حلته ولم تبق غير الخيط معلقا فى تلك الشجرة

وابقت

وابقت لى هذا المنظر البشع وبعد مضى خمسة ايام وصلت الى محل الحج ويوجد فيه احجارة ضخمة فى سفح الجبل منظومة الوضع يفهم من انتظامها انها عمارة متقونة الصناعة وهى مسكن الملك رامة وبجوارها مسكن الثعابين المتخذ من الاحجار الغير المنحوتة وبعد هذا المسكن بقليل محل بقرب حوض متكون من عين ماء ويقال ان هذا المحل كان مسكن الملكة سيتا (زوجة الملك رامة) وخفيرها المسمى لاكشمانه وهذه الآثار مظللة باشجار ابى فروة والرانج ولم يزل ثم عصفور يحوم حولى فكأنه يذكرنى تاريخ مصايب الملكة سيتا واذا صعد الانسان قليلا جهة اليمين فى الغابة وجد مسكن قرد يسمى انومان بقرب عين وارضه عارية عن النباتات ولا يشاهد بها الا صورة هذا القرد الشهير ومسكن بالارامة على قنة جبل شاخ يصعد اليه بطريق منحدرة وذلك أن هذا الجبل بعد أن يصعد الانسان عليه قدر مسافة معلومة يجده كله على شكل قنة فارتقيت على ذلك الجبل متمسكا بالدغالات والدويحات فوجدت هذا مجرد صخرة يقال انها كانت سابقا ذهبا فهذه الصخرة الحقيرة لا تستحق هذا التعب الذى كلفت به نفسى فى الصعود اليها غير أنه جبر خاطرى منظر بهيج جدا قد لاح لناظرى وذلك أن الانسان

متى صعد فوق تلك الصخرة رأى من احدى جهاتها جميع
وادي كشمير ومن جهة اخرى جبالا تمتد امتدادا بعيدا
يعلوفوقها ذروة من الثلج يقال لها ايماليا وبالقرب من تلك
الجبال عيون تسمى كريشتنا كانغا
وقد مكثت هذه البلاد زمنا طويلا منقادة لحكم الملك
رانجيت سنغ ولم يتفكر اهلها في الخروج عن طاعته بعد
موته وكنت اتعجب من اهل تلك الجبال حيث كانوا يثبون من
صخرة الى اخرى مع ما كانوا يلبسونه من الثياب السابغة
ففي الطرق الصعبة المسلك كانوا يحملونى معهم حال
المرور
وهنالك انتهت اسفاري في ذلك الوادي ولم انظر الا نصفه
وقد منعتني العوائق التي لازمتني في اسفاري بهذا الوادي
عن أن ارسم خرطة وادي كشمير وكان يمكنني ان أأخذ
صورتها مدة الاشهر الاربعة التي اقمتها فيها واظن ان اخباري
بقصد رسم خرطتها كان هو المانع من رسمها فان حاكم لاهور
يرغب في ابطال رسم جميع التخطيطات التي تبين منافع ذلك
الوادي لأنه كان يخشى من ان يرتب عليه جزيه جسيمة
اكثر من التي يدفعها وكذا حاكم كل خط بهذه المثابة يود
تعطيل تخطيط واديه بالنظر لما فوقه من الحكام فبناء على ذلك

لم استفد كل ما يتعلق بالصنائع وانما يصنع فى مدينة كشمير ألطف ورق يشتغلونه فى جميع بلاد الهند وهو نوع من الورق المصقول الجميل جدا ولم يؤذن لى فى الاطلاع على ورشته بل اذن لى بالاطلاع على معامل الشيلان * والماهرون من صناعها يكتسبون كل يوم اثنين اوثلاثة من النقود المسماة اناس اعنى ستة صلديات تقريبا وتدفع لهم اصناف بقدرها بدلا عنها وهم تحت تصرف حاكم الوادى دون غيره والرسوم والتصاوير الغريبة التى تشاهد فى الشيلان الكشميرية منقوشة بمجرد الفكر فقد شاهدت اشهر رجل عندهم فى نقش الشيلان يسمى محمود چو يرسم عليها التصاوير امامى فكان يرسمها بسهولة حتى انى لم ار الا بجريان قلم الرسم على الشيال فلا شئ من ازهار وادى كشمير ونباتاته الا وهو مرسوم فى تلك التصاوير ومع ذلك فعجزهم عن ان يصفوا شيأ من الطبيعيات ايا ما كان يمنع من ان يظن فيهم تصوير شئ على ماهو عليه واما الشيلان المنسوجة لاحتياج الاهالى فيرسمون فيها اشجارا وطيورا وحيوانات وهى على العموم غير متقنة الصناعة وغير ممتازة بالكلية واذا قابلت صور الابسطة المفروشة فى القصور القديمة بصور هذه الشيلان الحادثة رأيت الصور القديمة من غرائب الصناعة التى ينسج

على منوالها ولكن للهنود قريحة غريبة فى تنويع رسم الخطوط ولهم دقة وذوق سليم فى شغل الادوات من الاخشاب واما الاخبار التى بلغتنى فى شأن تجارة الشيلان الكشميرية فهى متناقضة حتى انه لا يمكنى ان اصدق فى شئ منها البتة فيجب على الانسان دائما ان لا يثق بجميع الاخبار التى يحكيها له اهل كشمير فانهم اكثر خلق الله كذبا حتى انهم من غير خشية يعضدون اثبات امور يمكن ان يثبت الانسان كذبها عيانا او يباع الشالات من اظرف الشيلان الطويلة فى مدينة كشمير بثلاثة آلاف فرنك ولا بد بعد دفع هذا الثمن من ان يجمرك عليه وقت اخراجه من تلك المدينة بل وفى محال اخر حتى يصل الى اوروبا ومن البديهى أن التجار لا يدفعون فيها هذا المقدار الجسيم ويوجد فى مخزن مدينة امرتيسير شيلان احسن واظرف من شيلان كشمير نفسها

وارض مدينة كشمير خصبة جدا ويوجد فى وهداتها بقعة عميقة يبلغ قدرها خمسين او ستين قدما متكونة من طين اسود وارض الوادى تزرع كل سنة مرتين الاولى تزرع قمحا فى شهر يوليه والثانية تزرع أرزا فى شهر اقطوبر وقد لا ينتج زرع الارز فى بعض الاحيان بسبب البرد الذى يصيبه قبل بدو صلاحه وكل غيط من الغيطان المزروعة يرويه عين ماء حتى

ان

ان الاراضى التى لم تسق ولو كانت عظيمة الخصوبة لا يزرع فيها شئ وتنبت فيها جميع الاشجار المثمرة الموجودة فى اوروبا ماعدا شجرة الزيتون واما عنبها فظريف جدا لاسيما النوع الخالى عن البزر ويستخرجون منه النبيذ واما النبيذ الذى اهدانى به الحاكم وشربت من جنسه فى ديوان صغير من الدواوين الهندية فطعمه كطعم النبيذ المكثر للدم فى مجارى البدن وهو كثير التخدير ويحب شربه الاقوام السيخية حبا شديدا حتى ان حاكم الوادى يصير بعض الاوقات عدة ايام متوالية سكران من كثرة شربه واما العنب والجوز اللذان يستخرج منهما الزيت فيحتكرهما الحاكم لنفسه وكل من اراد ان يأخذ شيأ من ذلك الزيت فليعرض له فى شأنه وفيها مقدار كثير من اشجار الجوز والرجراج والصفصاف وبعض اشجار من الداردار وشجرة الدلب المسمى شونار خارقة للعادة فى الكبر والغلظ ولا يوجد فيها اشجار البلوط والزان فجلبهما الى هذه البلاد يعد من جملة الهدايا وقد احدث فيها الحاكم المسمى شاه صاحب زراعة البطاطس فى بساتينه ولكن اهل تلك البلاد لم تلتذ بأكله ويعدون القنب والشوفان من النباتات البرية ولا يزرع الكتان الا لقصد تحصيل بزره لما انهم يستخرجون منه زيتا

ووادى كشمير هو فردوس الهندستان غير أنه ليس كذلك بالنظر الى سكانه الفقراء الذين يعمرونه فان اللسان يقصر عن ان يعبر عن حالتى الفقر والظلم اللذين يستوليان على الفلاحين وارباب الصنائع هنالك فلذا تجد كثيرا من الشحاذين يتمكنون من تحصيل قوتهم الضرورى بسؤال الصدقة اكثر من ان يكتسبوه من الاشتغال بحرفهم وصنائعهم التى يعرفونها وكانت تلك البلاد حينئذ خالية من اهلها بسبب القحط الشديد الواقع فيها من نهب ملك لاهور المسمى شيرسانغ المستولى عليها الآن وقد فر معظم اهلها الى ارض لوديانة ثم انه حجر على اهل مدينة كشمير حين كنت فيها من أن يرحلوا عنها الى اماكن اخر وكل من ابى يعاقب عقابا شديدا

ويكثر فى هذا الوادى البرك المنتقعة المياه حتى ان الانسان يكون عرضة فى السهول لأن يصاب بانواع الحمى والرمد المستمرين وان سكانها عرضة لأن يصابوا بالغدد الكبيرة المعروفة بالسلع ومن الهنود طائفة صورة وجوهها كوجوه اليهود وهى وان كانت مستحسنة بالجمال واللطف الا ان صور كثير منهم تصير غير مستحسنة بسبب مايعلوها من البلادة والحماقة وفيهم طائفة اخرى ذات وجوه قصيرة الا أن سيمتهم

تدل

تدل على النباهة وزكاء المفهومية وفيهم اناس زرق العيون وشعورهم تميل الى الشقرة ومن العجائب ان فيهم اناسا على صورة الزنادقة يظهرون خلاف ما يبطنون من الدين واناسا مفقودة جميع حواسها من جبال البرنات (بشمال اسبانيا)

وتخطيط وادى كشمير جليل الفائدة بالنظر للعلوم الطبيعية ومهم ايضا بالنظر لمن يريد تعليم آداب الهنود اللغوية ومعرفة الآثار القديمة حيث يوجد فى جميع الاماكن عمارات قديمة وآثار وبقايا الهنود واماكن الحجج المنسوبة للأحقاب الخالية ويوجد فيها نقوش وشخوص قديمة ويوجد فيها ايضا من غير شك نقوش على ألواح من النحاس وسألت اناسا من الهنود عن شئ منها فاستبان منهم التعجب والحيرة من سؤالى حتى فهمت من حالهم انه لا مانع من أنه يوجد عندهم شئ منها فاجابونى بأنه كان عندهم منها اشياء سابقا ولكن قد اخذتها طائفة البابان ورموها فى نهر جالوم ولم يمكنى ان اظفر بحقيقة ذلك لما يظهر منهم ان كتمانه عنى من التدقيق فى الدين وبحسب الظن اذا سألهم الانسان بدون واسطة عن شخوص نفيسة من الذهب او الفضة لا يعطون شيأ منها خشية ان تتغص عليهم الحكومة

حيث يخطر ببالها انهم يتملكون اموالا من جنسها ولكن فيه
بعض اناس منهم الآن يعرف ان الافرنج يرغبون فى تلك
الشخوص والاحجار والنقوش القديمة فيبحثون من غير شك
عن تحصيل شئ منها ليستميلوا به السياحين وليكونوا مقبولين
عنــدهم
وبالجملة فكان على رسم خرطة وادى كشمير لانها من الاشياء
النافعة لا بالنظر للجغرافيا فقط بل لتاريخ الهنـد ايضا حيث
انها تنفع لتوضيح بعض امور يشك فيها
واما اللغة التى يتكلم بها اهل مدينـة كشمير فتكاد أن تكون
عين اللغة الهندية القديمة وكنت افهم معنى الكلمات المفردة
بمطالعتى لشئ من كتب تلك اللغة وعندهم كتب شتى ليست
من غير شـك الا تراجم كتب قديمة ولكن اذا اراد الانسان
ان يستأجر مدرسا لتعليم هـذا اللسان وان يحصـل كتبا
يشتريها وان يجازيهم على سائر خدمتهم له ولو قليلة فلا بد له
من مبالغ جسيمة من الدراهم ويلزم له ايضا اشياء متنوعة
يهاديهم بهـا فان من عادتهم الاختلاط مع الغـير بواسطة
الهدايا وحيث كنت عاريا بالكلية عما يصلح لان يهدى به اليهم
فلم يمكنى ان اسأل احدا منهم قضاء حاجة ما ولو صغيرة وكانت
ارباب حكومة مدينة لاهور قد أعانت اعانة كلية السياح

جاكمونت

جاكمونت والسياحين الاخر الذين ساحوا بعده فى بلاد
الهند واما انا فكذلك نلت منهم اسعافات ومساعدات
كثيرة لولاها لم يتيسر لى الاقامة ولا المعيشة بمدينة كشمير
ولا بأس أن اذكر لك ثانيا سبب ما اوقعنى فى ورطة هذه النقلة
الى هذا الوادى وذلك انى لما وثقت من سوء حظى بأقاويل
السياحين الاقدمين وبحكاية أحدهم وهو راجع من مدينة
كشمير الى مدينة لاهور وبالمواعيد المزخرفة الكاذبة التى
وعدنى بها شخص محترم جدا ممن يسكنون مدينة كشمير
اهملت فى أخذ الادوات الضرورية والاحتياطات المعاشية
اللازمة لاتمام تلك السياحة التى شرعت فيها
ولنذكر لك انه لا خطر على السياح فى جميع بلاد الهند وذلك
أنه متى قوبل بالاحترام الجزيل والاكرام الجليل من قبل
ارباب حكومتها كان دائما فى غاية الامان ويحسنون معاملته
مع الاكرام فان اهل تلك البلاد المشرقية فى غاية من الادب
والبشاشة وقد زعم بعض الافرنج أن الادب وحسن الخلق
ناشئان عن تسلطن النساء على افئدة اهل جمعيا تهم التأنسية
وان اعظم الملل ادبا انما هى الملة التى يغلب عليها ذلك التسلطن
والنساء المشرقية لا يخرجن من بيوتهن وليس لهن نفاذ كلمة
على الرجال ومع ذلك يعجز الوصف عن ما عند اهل الرتبة

العلياء منهم من اللطف فى افعالهم والظرف فى مجانساتهم فيبدون بالترحيب كثيرا عند الملاقاة ويعتنون زيادة باستماع المتكلم وباجابته بالفاظ عذبة فلا يتكلمون ابدا بشئ من عبارات الحنق والانفعال ولا من العبارات الدالة على الخشونة وسوء الخلق

وانما يجب على الانسان ان يحترس من الوثوق بالفاظهم العذبة ومواعيدهم المزخرفة وان لا يثق ايضا بالفاظ ومواعيد الغرباء الذين خالطوهم زمنا طويلا كما استبان لى ذلك منهم بالتجربة

الباب الثامن

فيما يتعلق برجوعى الى مدينة لاهور وبغدران تانسير وبالخان المعد لنزول الغرباء فيه وبمدينة دلى وبآثارها القديمة وبالاثر المسمى كوتوب وبمدينة فيروزشاه لات وبالكهوف وبطائفة الباريا س وبالفقراء الذين يأكلون رمم الادميين وبمدينة لوكنوو وبمدينة قسطنطيا والاصنام اليونانية والاصنام الحادثة وبتربية الطيور ومقاتلة الفيلة وباللصوص المسمين توغ وبمدينة فيزاباد وبمملكة اود وبمدينة سلطانبور وبالرياح الحارة وبنزول الامطار الدورية وبقصائد الشاعر المسمى ريغ ويدا واخلاق وطباع

اهالى اقليم بنغاله الواطى وبرجوعى الى مدينة قلقوطة
قد سافرت من مدينة كشمير فى خمسة وعشرين من شهر
اوقطوبر وكنت مجبورا على أن اقطع تلك الطريق بعينها
التى سلكتها اولا وكنت اتضرر من سلوكى هذه الطريق اولا
وثانيا غير أن مرورى بهذا الوادى كأنه حادث لم اره غير هذه
المرة فان مرورى بتلك الطريق سابقا فى زمن نزول الثلج
وانجماده والآن حال تقطعه وذوبانه ويبس مجاريه فتمكنت
من عمق الاماكن الغويصة التى كنت قد مررت بها حالة
تغطية الثلج لها فشاهدت مدينة لاهور ثانى مرة وكانت
اذ ذاك فى غاية الهدء والراحة وكان قبل ذلك ببعض ايام
قد قتل قد ذبح نديم الملك امام عينيه فى قصره المسمى دربار
وكان فيها اذ ذاك كثير من الانكليز منهم من هو ذاهب الى
مدينة قابول ومنهم من هو راجع منها وقت ما كانوا فى شدة
ظفرهم بأعدائهم وكانت وقايعهم الانكليزية تتكلم فى شأن
الانبذة اللذيذة التى كانوا يستخرجونها فى مدينة قابول
ومقتضيات الحوادث الراهنة لا تمكننى من الاطلاع ثانيا
على اقليم بنجاب فكنت اتسلى عن ذلك بتفكرى فى عدم
الوسائط التى توصلنى

وقد ارتحلت من مدينة لاهور فى آخر شهر نومبر وكان

وقتئذ الملك غائبا غير أن حضرة الجنرال كورت قدمنى بنفسه امام الوزير الاعظم فأنعم على بكسوة تشريف أحسن وأجود من الكسوة الاولى وسئلت هل حصل لى السرور من ذلك الوادى وهل عوملت فيه بأحسن المعاملات ثم سئلت ثانيا هل حصل لسكان ذلك الوادى سرور من حاكمه وعند استماعى الجنرال كورت وهو يقول لى هذه العبارة اما من جهة هذا الغرض الاخير فلا بد من أن تجيب عنه بحقيقة الحال بلا تمويه حصل عندى دهشة وتعجب فقلت له انى سمعتهم دائما يثنون عليه الثناء الجميل وانا لا يمكننى أن اتشكى منه ابدا لان الحاكم لا يمكن أن يكون كفيلا بالمضرة والاساءة التى كابدتها فى بلاده فاستحسن منى هذا الجواب وقبلته نفسه أحسن القبول لما فيه من الاتيان بالصواب

ولم يكن فى ارتحالى من مدينة لاهور الى مدينة لوديانة فائدة حيث وجدت بلادها مثل البلاد التى جئتها قبل ذلك ببعض اشهر مع شدة الأمل والرغبة فلم اخرج منها على طائل

وكان قد اشتد البرد فى لوديانة من مدة اشتدادا عظيما ومع ذلك فقد بت عدة ليال تحت كبد السماء من غير خيمة فكنت

اجد في صبيحة النهار برنوسي منشورا بالثلج المتراكم فوقه
وصارت المياه ثلجا منجمدا وكانت الارض قد انجمدت
وامتلأت الاعماق والحفر بالثلوج وكان يلزم لي ان اسعى
واجتهد كل الاجتهاد في عمل برنوس آخر مثله في مدينة
اغرى ومن العجيب ان الجمال تبيت الليل بلا وقاية تحفظها
من البرد ولا يظهر عليها التأذي بما تقاسيه من شدته اما
السياح الذي يرغب في الاطلاع على الآثار القديمة الهندية
فانه لا يجد في طريقه الموصلة من لوديانة الى مدينة
كورنول شيأ من تلك الآثار يكون جليل الفائدة الا بركا
تسمى برك تانسير وهي واسعة جدا وعليها قنطرة قديمة
متصدعة توصل من البر الى جزيرة في وسط هذه البرك كان
يقعد فيها سلطان مسلم ويأمر باطلاق البارود على الهنود
الذين يغتسلون فيها ويشرف على هذه البرك من جهة الغرب
تل ممتد وكانت تانسير هذه محل اشتعال نار الواقعة العظمى
التي انعقدت بين العائلة الكوروسية والعائلة الباندوسية
وانتهى الامر فيها بتسليم دولة الهندستان واقول كما قال
الشاعر بعد التعريب نظما

هذي البلاد وصلتها ولطالما * كرت بها الكوروس والبندوس
كم اضرموا نار الوغى فيها وكم * وبها استوى المغمور والمغروس

وكذا ملوك الارض طرا كم بها * عقدوا وغالم تحتمله طروس
ولاشك ان هذه البرك العجيبة واشجار البنيان التى تظللها
والبراهمة المحترمين ذوى اللحاء الشائبة الذين يعمرونها والتل
الذى يشرف عليها الذى كان من غير شك محل مخاطبة كرشنه
مع ارجونه قد القت فى ذهنى تصورات فى شأن سعادة تلك
البلاد مع ما قاله باغاوا جيتا من الاشعار اللطيفة فكنت
اومل ان اجد بواسطة السؤال والتفتيش فى الاماكن
القديمة بعض نسخ باقية من القصيدة المشهورة المنظومة فى
منظر تلك البقاع ولكن ما حصل لى فى شأنها من الغرور
لم يمكث الا قليلا وذلك ان هؤلاء البراهمة الذين يوجدون فيها
مع انهم اعظم الخلائق جهلا لا يجيبون من يسئلهم عن شئ ما
الا بطلب الاحسان لا غير
ومدينة كورنول محطة واسعة تقيم فيها العساكر وما بين
مدينة لوديانه وكورنول من البلاد يحكمه رؤساء من
الهنود مستقلون مع الاتحاد مع حكومة الانكليز وهى بلاد
كثيرة الاشجار ويكثر فيها شوك القتاد واللصوص التى
كادت أن تكون هذه البلاد خربة بهم فبينما كنت
امر بغابة اشجار اذ صادفت ستة فرسان متسلحين بالرماح
يزعمون انهم خدم حاكم مدينة باتياله فسرت معهم مدة من

الزمن فلما رادونى وتحققوا من حالتى بمجرد النظر انفصلوا عنى وتأخروا فى سيرهم ورأى قليلا واخبرت انهم بقرب تلك الغابة قتلوا سواحا ومع ذلك يندر تعدى هذه اللصوص على سياحى الافرنج بل لا يوجد بلاد لسياحى الافرنج فى غاية الامن والطمأنينة مثل بلاد الهند وذلك لكون ارباب الحكومة الانكليزية قد سلكوا فى هذه البلاد مسلك الحكام الهندية اعنى فى ترتيبهم لمشايخ البلدان المسمين تانادار فى أن يقوموا بدفع جميع السرقة التى تحصل فى بلادهم

وفى طريق هذه البلاد يشاهد الانسان خليجا انشاه الشاه ناهور وخانات عجيبة جددها ملوك المغول وهى مسورة باسوار عالية ومحصنة بابواب متينة فهى محفوظة من ان يسطو عليها احد بل ان سطوة الحاكم الانكليزى تفوق هذه الاسوار فى الامن والحفظ وبمرور الانسان على البلاد الطائعة لقمبانية الانكليز يعرف قدر الادارة الانكليزية فى بلاد الهند وليس لسكان هذا الوادى ما يشغلهم من الاوهام الفاسدة عن أن يبصروا حقيقة هذه الخيرات الجليلة ومع ذلك فمن اطلع على تلك البلاد لا يمكنه حجز نفسه من أن يتذكر مع التأسف امر الدولة القديمة المندثرة التى تدل على زوالها بابقاء تراتيب عظيمة ومدن ظريفة وكثير من العمارات

الفاخرة

وبين مدينتي كورنول و دلى يوجد ثغر بلاد الهند الانكليزية المرتب فيها ديوان الجمرك وأهل هذا الديوان لا يكشفون غالبا على امتعة الافرنج الغير التجارية

وقد وصلت الى مدينة دلى التي لم يمكني الاطلاع عليها في ذهابي فوجدتها اكثر مدن الهندستان عمارة قديمة منها ما ينسب للهنود ومنها ما يعزى للاسلام واشهر هذه الآثار اثر يسمى كوتوب وهو عمود داشخ واطول الاعمدة الموجودة وبجواره حوش مربع مصنوع من صفوف اعمدة باقية عليها آثار اشكال وكذلك بعض الاحجار الساقطة من حيطانه البالية وفيها ايضا صور آلهة هندية وفي وسط هذا الحوش دعامة من النحاس الاحمر مكتوب عليها علوانان اصليان قد اخذت صورتهما بالطبع والنسخ وأما العامود الاكبر المسمى كوتوب فهو متكون من احجار وردية اللون مخلوطة ببعض احجار بيضاء ومملوء بالنقوش القديمة الغريبة وكذا ابواب ذلك الحوش الذي فيه هذه الدعامة

ويوجد فيها اثر آخر غريب جدا وهو صنم فيروزشاه على سفح جبل وسط آثار رديئة الشكل وعليه نقشان واضحان الاول الذي فسره الخواجه قلبروق مكتوب بحروف دواناغاريه

وكانها

وكلها سهلة القراءة ما عدا بعض احرف فى الآخر وكان قد نقله فى كتابه مستوفيا

فنقلت صورة النقش الآخر المطبوع بالحجر

وبجوار هذا الصنم يشاهد من جهة آثار مدينة قديمة وعامود كوتوب ومن جهة اخرى المسجد الاعظم والقصور التى فى مدينة دلى الجديدة وهذه المدينة فاخرة ايضا بالنظر الى كل من آثارها القديمة وعماراتها الجديدة ولا بد من أن يقع فى قلب الناظر حزنا فى شان الافتخار الدنيوى بعمل المآثر الجليلة ولم يزل ايمبراطورها يلقب نفسه بسلطان السلاطين كما كان يلقب به فى زمن تحكمه على الهندستان بأسرها وعلى مدينتى قابول وكشمير وليس هو الآن الا عاملا من جملة عمال القمبانية الانكليزية وقد رأيته فى اكبر عيد من اعياد المسلمين التى ينبغى له أن يظهر فيها الفخر والابهة مصحوبا بخفر قليل جدا فى هيئة رديئة فلبث برهة من الزمن بقربه فرأيته قد وضع باطن كفه فى يد رجل انكليزى وبقرب المدينة بمسافة قليلة يوجد قصر كان قد استعمل مدة من الزمن رصدخانة وولجت فى غاره ظلم يزعمون أنه يسكنه شيطان فرأيت انه يعمره ابن آوى والخفاش التى كانت تطير من أوكارها وتصدمنى فى وجهى فحملت المصباح بنفسى

وولجت فيه امام من كان معي ولم يمكني أن اغلب على عقل
خادمي ليدخل معي ويقتفي اثري فيه فرأيت داخل ذلك الغار
كلما سلكت فيه يضيق شيأ فشيأ حتى وصلت الى مكان
لا يستطيع الانسان ان يتجاوزه ولو حبوا وطيران الخفاش
في هذا المكان المظلم ونعيرابن آوى احدث اصواتا مخيفة
صالحة لأن تلقي في عقول هؤلاء الهنود السيئين الاعتقاد
الرعب والفزع ولم يجتهد أحد في ان يدخل الى انتهاء هذا
الغار ويوجد في جميع قصور اهل دلي مجازات ارضية
مثل ذلك الغار معدة لأن تدخل الهواء الرطب في الامكنة
الداخلية من الديار وكنت آمل بالولوج فيها ان اجد قاعة
كالقاعة الارضية التي توجد تحت حصن مدينة الله اباد
المستودع فيها آثار من آثار عبادة الهنود الدينية وكان من
سعادة حظي ان خرجت من ذلك الغار الارضي من غير أن
تلدغني العقارب او الثعابين

فبعد أن اقمت شهرا في مدينة دلي عدت الى السياحة
ثانيا فوجدت خيمتي التي استودعتها حال ذهابي لقصد
تخفيف اثقالي لاجل سرعة الانتقال الى مدينة لاهور
فنفعتني هذه الخيمة نفعا عظيما وكنت حينئذ قد عرفت تلك
المدينة ولغاتها وتمتعت فيها مدة اقامتي بأظرف آخر ايام

سياحتى ثم سافرت الى مدينة دلى وقت تبلج الصباح وسرت حتى وصلت المحطة ونزلت فيها فوجدت خيمتى منصوبة وكذا اكلى وسفرتى وكتبى حاضرة وكنت كل يوم انزل فى هذه الخيمة ببلاد جديدة وكنت فى المساء احظى باقبال اهل القرى على لقصد الزيارة والتسامر معهم حيث كانت هذه العادة فى السياحة هى المعتادة للسياحين من الافرنج فى تلك البلاد وان كانت هذه العادة اطول العادات الا انها أليق واقل تكلفا من غيرها ولا سبيل الى استفادة اخبار فى شأن تلك البلاد الا بهذه الوسيلة وانما يتأسف من كون تلك الاخبار غير عظيمة الاهمية وذلك لأن اهلها لهم رغبة عظيمة فى استماع الاخبار الاجنبية دون ان يخبروا بشئ ما ولما علم بعضهم من اتباعى أنى قوبلت بأحسن مقابلة من الحكام الانكليزية هرعوا الى لكى يترجونى فى ان اكون واسطة عند الحكام ومع ذلك فلم يكونوا الا اناسا مجردين عن الاشغال من اهل القرى فيقصدون بالوفود الى خيمتى مجرد التريض وبزيارتى مجرد انقضاء الوقت فكانوا يجلسون أمامى ويشخصون بأعينهم الى واذا ابتكرتهم بالخطاب انصرفوا عنى بغير جواب وكنت اهتم بضرب خيمتى فى جوار مساكن البراهمة والدراويش من الهنود

وان لم تكسبنى مجاورتهم فوائد كثيرة فكانوا يستنكفون عن مخالطتى لعدم اكتسابهم منى شيأ من الروبيات وكنت اسمعهم يذكرون مدة ساعات متوالية بعض كلمات مفردة ينطقون بها من الانف بالعنف ويرفعون بها اصواتهم حتى لا يجد الانسان سبيلا الى النوم وبدنو الانسان وقربه منهم ومن مساكنهم يقف على تفاصيل معيشتهم القديمة وعوائدهم واخلاقهم المقررة فى الكتب ومنظر هذا الوادى بل وسائر الحوادث اليومية يذكر الانسان باحوال بلاد الهند القديمة وباشعارها التى يسردون فى ضمنها حكايات فكنت اسمع تواريخهم المستطيلة المزوجة بحكايات أخر يتولد عنها بالمناسبة تواريخ جديدة وهكذا كما فى الكتاب المسمى هيتو پادوسا ومتى انتهت الحكاية سئلوا انفسهم عن فهم ما قالوه ولا يجاوبون دائما الا بعدم الفهم ولا يهتمون بالاصغاء للمتكلم وفى الغالب ينام كل من المحدث والسامع

وقد شاهدت فى بعض الاحيان عدة بيوت خربة ومتباعدة عن القرى فسألتهم عن سكانها فألقوا عنى وجوههم لفتة كآبة ولم يجيبونى بشئ ما ففهمت أن سكانها هم الطائفة الپارياسه الذين يقيمون مدة النهار فى تلك البيوت الصغيرة

الرديئة المتخذة من الطين ويخرجون منها فى الليل ليبحثوا عن مايقتاتون به من الحيوانات الميتة ولا شئ اغرب واقبح من هؤلاء الناس المحتقرين ذوى الثياب الرثه الذين يعيشون وسط القاذورات والاوساخ وبحسب الظن انه يوجد اناس اغنياء من تلك الطائفة فانك تجد اناسا ممن اضاعوا حرفتهم والتحقوا بحرفة اخرى محجورة عليهم يعودون الى طائفتهم بواسطة مبلغ يدفعونه من الدراهم

وقد سمعت من اناس أن الدراويش الهندية تقتات برمم بنى آدم ولكنى لم اشاهدهم البتة ولم يخبرنى احد ممن يوثق بكلامه بهذه الفعلة الذميمة المضادة بالكلية لقوانين البراهمة واخلاقهم اللطيفة وعندى ان عزو ذلك لهم ليس الا محض اختراع نميمة من المسلمين

وقد ذكرت فيما مر صورة مايلزم من المصاريف لهذه الرحلة على وجه التفصيل الكلى والآن قد جربت شدة لزومها للسواح فطالما تأسفت من كونى فقيرا لا استطيع ان استأجر احدا من البراهمة اوالهنود يرافقنى ويسهل لى استكشافاتى ومطالعاتى فى كتب الهنود

ومن اغرب المدائن الهندية مدينة لوكنوو وهى الآن تخت حادث لمملكة اود وهذه المدينة تنقسم الى مدينتين

قديمة وجديدة اما المدينة القديمة فهى كبقية المدن الكبيرة
ببلاد الهند يعنى انها تشاهد من بعد أنها ذات منظر بهيج
بسبب القباب المذهبة المشيدة فى عماراتها ولكن فى داخل
هذه المدينة حارات محدودة بحيطان مظلمة وحوانيت
صغيرة مسقوفة بالقش والغاب وفى وسط الحارات مستنقع ماء
راكد ذو عفونة يخلطونه بوسخ هوكا (اعنى عود الدخان)
وبالسمن المغلى فيتركب منها عطر لخصوص المدن الهندية
لا ينسى الانسان رائحته واما منظر الحارات التجارية التى
تعقد فيها الاسواق فهى بهجة المنظر لاسيما فى المساء حيث
يزداد منظرها بهجة بسبب لمعان المصابيح وتلاعب اضوائها
وانوارها

واما المدينة الجديدة فحاراتها ذوات قواصر وقصور قليلة
الارتفاع الا انها فاخرة البناء حتى لا يظن الانسان وهو بعيد
عنها انه يوجد فى هذه المدينة شئ من هذه العمارات
وتسلسل بنيان مسجدها واتصاله بقصرها وبابها المسمى بباب
رومة والقصر الصغير الحادث يتركب منه سلسلة عمارات
بهجة تذكر السواح عند مشاهدتها بالجهة المسماة لورة
وبالحارات الظريفة بمدينة باريس ومدينة لوكتوو
مملوءة بالاوثان القديمة والجديدة حتى انه يوجد فيها تماثيل

على صورة هرقول وابولون وونوس اى الزهرا
والرعاة والراعيات المنسوبة لكل من الملك لويز الرابع عشر
ولويز الخامس عشر وفيها اناس يبيعون المياه اللطيفة وهم
يضربون بطاساة من نحاس فوق بعضها كأنهم ينادون بها
كما يفعله بياعو الجوز الهندى وكذا بياعو الخضار والفواكه
لترغيب المشترى ومتى تعوّد السياح الفرنساوى مدّة على
رؤية وجوه ابنائها وعلى ملابسهم يمكنه ان يتسلى عن بلاده
ويتخيل انه مقيم بمدينة باريس
وعلى البعد من مدينة لوكنوو بفرسخين يوجد القصر
المسمى قسطنطيا وهو قصر كان قد بناه الجنرال لامرتيبير
لاجل الحاكم المسمى ناباب الذى لم يدفع له ثمنه وقد صار
الآن رمسا له ويمكن للانسان مدّة شهر أن يقيم فيه
من غير مقابل واذا لم يطلب احد من السياحين النزول فيه
يمكنه أن يمكث زمنا طويلا على حسب ارادته وبحسب الظن
ان هذه العمارة الاحسانية سيؤول امرها بتقادم الزمن
الى أن تصير كأمثالها من العمارات الموقوفة فانهم قد شرعوا
منذ مدّة فى توفير المصباح الذى يضىء على القبر وعلى السلالم
التى بها ينزل الانسان
وكان ملك اود يجرى بذلك الوقت اشغالا عظيمة

بمعرفة مهندس انكليزى فشيدله رصد خانة فى ارض منخفضة فأخبرنى المهندس المذكور أنه لا يمكن مشاهدة النجوم فى هذه البلاد الا بارتفاع زائد مشرف على الافق لما أن الابخرة التى تنعقد فى الجو تمنع من مشاهدة الكواكب ولكن مصاريف هذه العمارة انما هى على الملك المذكور

وفى مدينة لوكنو محل لطيف يشتمل على جملة من الطيور الغريبة وعلى مقدار عظيم من النمورة محبوس فى اقفاص من خشب وقد تهرب فى بعض الاحيان من تلك الاقفاص ومنها نمورة مستأنسة جدا لا تنفر من الملاعبة باللمس ونحوه ومنها نمورة لم تزل باقية على توحشها

وقد شاهدت مقاتلة الافيال التى تحبها الهنود وذلك انهم يحضرون فيلين ويحرشونهما على بعض فيمتنعان اولا عن المقاتلة وبعد ذلك يهيجان بالتدريج بسبب ضرب خفرائهما وبتحريض المتفرجين عليهما فيثبان على بعض ويتصادمان مصادمة عنيفة ومتى اشتد القتال بينهما وظهر فصلوهما عن بعض باطلاق بعض صواريخ

وقد شاهدت فى مدينة لوكنو بعض لصوص يسمون توغ (اى الخناقين) كانوا فى السجن فسألت واحدا منهم

كان يستميل القلوب بكلامه وافعاله وطلاقة وجهه عن عدة ماخنقه من الناس فأجابنى من غير تردد ولا خوف بأنه خنق نحو خمسة واربعين اوخمسين نفسا ولم يكن عمره اذ ذاك اكثر من خمسة وثلاثين سنة فسألته ان يبين لى كيفية ذلك ولو بالتجريب فى نفسى فأبى وامتنع اما احتراما لى او خوفا من أن يتهم بالتمادى فى قضيته وكانت جميع الناس قد اشاعت بالقبض على هؤلاء الاشقياء كبار الذنوب الذين يخنقون الناس لقصد السرقة ولترض آلهتهم المسماة كالى ويتكلمون فى شأن هذه الافعال الذميمة الصادرة منهم كما يحكى الصياد فى شأن صيده ويتكلمون ايضا فى شأن اماكن جديدة ترغب السياحون فى الاطلاع عليها فكأنها احبولة لاقتناص السياحين

وقد اتضح من تحقيق دعاويهم السيئة انهم يتفقون مع بعض على اسم الليل ويجتمعون طوائف من بلاد بعيدة فى محل معين قبل ذهابهم للسرقة بمدة طويلة وانهم يسطون على قوافل السياحين بهذه المثابة وانه بمجرد اعطاء علامة التعدى المتفقين عليها يخنقون منهم مقدارا جسيما دفعة واحدة ولهم لغة اصطلاحية متعارفة بينهم وزعم بعض الناس أن هؤلاء اللصوص قد قننوا لجمع سرقتهم قانونا فى مغارات بقرب

مدينة بومباى تسمى مغارات ايلورا وصارت الآن
القمبانية الانكليزية تبذل مجهودها فى قطع دابرهم بالكلية
ولم تزل ارباب الحكومة من الهنود تبحث مع التراخى
عن القبض عليهم حتى ان اغلب هؤلاء الحكام كانوا يحامون
عنهم فى السر بشرط أن يتقاسموا معهم ما يجمعونه من السرقة
فاستكشف الآن اهل القمبانية أن الحكام المتكفلين بضبط
القرى لهم اتفاق وتعاهد مع هؤلاء اللصوص
ولم تزل قمبانية الانكليز تتبع اللصوص المتسلحة لقطع الطريق
المسمين ذاكوت تبعا زائدا لقصد قطع دابرهم فقد كفلت
ضباطا ماهرين لهم معرفة تامة فى لغة هذه البلاد والزمتهم
بوظائف خصوصية لذلك اعنى لقطع دابرهم
ومدينة فيزاباد هى تخت مملكة اود القديم والطريق
الموصلة من لوكنو الى فيزاباد ظريفة جدا
ومزروعة بجامع اشجار المانغية وهى الآن محل نزهة دائمى
وتلك المدينة لم تزل حافظة على اثارها العظيمة كيف لا وقد
وافق الاسم المسمى اذ معنى فيزاباد مدينة الابهة والبها
وفيها ايضا سوق جميل جدا وعمارات مهمة غير أنها لا تشتمل
على شئ من غرائب الابنية
واما مدينة اود الموضوعة على البعد من مدينة

فيزاباد بفرسخين فهى مدينة هندية على نمط مدينتى ماتور وبندرابند فى البناء والمنظر وليس فيها شئ غريب يفوق ما فى هاتين المدينتين اللتين يفوقان عليها من كل الوجوه وقد كانت فيما سبق من اجل مدائن الهند وقلعتها مقصورة على الملك رامة ويطلعون السياح على جبال صغيرة واطلال قديمة يزعمون انها كانت مساكن رامة وزوجته سيتا وخادمها لاكشمانه ورئيس القردة المسمى انومان وفيها كثير من القردة المقدسة وهذه المدينة مملوءة كباقى مدن الحج الهندى بكثير من الدراويش الذين لا يشتغلون الا بالاغتسال وتلاوة الصلوات والاوراد وتحبيل النساء اللاتى تكون ازواجهن اعنة او عاجزين عن الوطئ فتذهب الازواج بنفسها اليهم لاجل اداء هذه الفعلة الذميمة

ومنظر الطريق الموصلة من فيزاباد الى مدينة سلطانبور هو عين مناظر طرق جميع بلاد اود اعنى فى كثرة الاشجار وفى المظلات الحسنة تحت فروع اشجار المانغية فى جميع اماكن الطريق ويتصل بمدينة سلطانبور نهر يسمى غوغرا وفى هذا النهر احجار مغطاة بقليل من الطين ويقال انها قنطرة كان قد شيدها قردة الملك رامة حين

رجع الى مدينة اود بعد فتحه لجزيرة لانكا وكنت لا اظن
الوقوف على آثار خرافية مثل هذه الآثار بمشاهدة مجموع
تلك الاحجار وتشتمل ايضا على خمسة شيوخ من الاسلام
كانوا قد استشهدوا في الغزا وحكاية قتلهم المتواترة بين الهنود
تعد من الهذيان وليس ثم فائدة من عمارة قبورهم الا ما يصل
الى خادمها حيث يأخذ النذور والوظائف المرتبة على
الحجاج منهم وقبل الوصول الى مدينة سلطانبور يجد
الانسان مجارى سيول عظيمة وتلالا من التراب جسيمة
وقد شاهدت امثال هذه التلال عينها بجوار جميع المدن
العظيمة ولا يمكنني أن اعرف سبب تجمعها الذى لا بد
وان يكون محض امر عارض
وقد ارتحلت من مدينة سلطانبور فى خمسة وعشرين
من شهر ايار مفارقا اخصاى الذين قابلتهم فى بلاد الهند
واكرمونى فابتكرنى الندم على مداومتى للسياحة
وانقطاعى عن الرفاق والوطن وكانت الرياح الحارة بذلك
الوقت قد هبت على فى ذلك القطر مع الشدة فانظر ما مقدار
الرياح والفرطونات المستمرة من الساعة السابعة من النهار
الى المساء وتثير زوابع عظيمة تملأ الفراغ من جميع الجهات
وتحجب الطرف عن مشاهدة السماء فيكابد الانسان منها

ما

ما يكابده من الم الحر لو كان داخل تنور فللمسافر وقت الصباح بل وقت السحر احسن له لما أن فى باقى النهار لا بد وان يضع الانسان على ابواب الخيام ابسطة على هيئة الستاير وترش عليها المياه لاجل ان يمر بها الهواء فيصيرها رطبة ففى هذا الفصل تجف الحشايش وتصير السهول الخالية عن العيون اشبه بصحرا محله غير أن اشجار المانغية التى هى ألطف الاشجار بهجة ومنظرا فى الهندستان حيث لم تزل يانعة زاهية يتمتع الانسان بثمارها اللذيذة وبظلالها الرطبة وتعتقد الهنود ان الجنة قد اعدت لمن يغرس شيا من هذه الاشجار

فاذا انقرضت يبوسة تلك الرياح الحارة اعقبها انسجام الامطار ثلاثة اشهر متوالية فيتعذر على الانسان السفر فى هذه الاشهر حيث تصير جميع الاماكن بتلك المثابة وتفيض الانهار فتصير الغدران الصغيرة انهارا كبيرة حتى أن بعض الاقاليم يصير مدة من الزمن اشبه بحيرات متسعة وتمتلأ الارض بضفادع وهوام سمية وتنتشر فى الجو حشرات اشبه بالسحاب ففى هذه المدة تأوى الحشرات داخل البيوت التى اضطر اصحابها الى فتحها خشية الحرارة وبتصاعد العرق المستمر يصير الانسان عرضة لأن يبتلى بحرارة جذامية تسمى الحبات

القيحية التى ينشأ عنها ثوران البدن وهيجانه وفى هذا الفصل بعينه يصاب الانسان سريعا بداء الكبد
وبعد فراغ فصل المطر يبقى الجو ايضا مستورا بالسحب وذلك لما أن الشمس تبرز رطوبة الارض فتصير ابخرة يتكون منها سحاب ينعقد فى الجو يمنع الهواء فيصير القطر ذا حرارة صعبة وينشأ عن الابخرة المتصاعدة وكذا تحليل رمم الحيوانات الكثيرة حمى وبائية
وبالجملة فيعقب هذا الزمن الردىء فصل الشتاء فيتمتع فيه الناس بمثل ما فى فرانسا من اعتدال مزاج القطر وصحو الزمن ففى هذا الفصل الظريف تشرق الشمس بعد أن يسبقها انبلاج الصبح اللطيف ويصير الجو صفوا خاليا عن الاوخام رطب المزاج فتكون بذلك بلاد الهند ألطف واحسن البلاد وفى تلك البلاد ينبت القمح وكذا باقى الحبوب الغذائية ويبدو صلاحها فانهم يرمون الابزار ويزرعونها فى الارض فى شهر اوقطوبر ويحصدونها فى شهرى مارث وابريل
وحين تأخذ الرياح الحارة فى الهبوب يعلو على مطلع الشمس ابخرة كثيفة تكاد ان تحجبها عن الطرف بالكلية واذا قرب فصل الامطار تراكمت غمامات عظيمة كالجبال مصحوبة بالبرق والرعد وظهرت علامات تدل على اقبال تلك الامطار

الشبيهة بالطوفان المخيفة التي تغمر جميع الهندستان وهذه
الامطار هي سبب خصوبة الارض ولولاها لكانت بلاد
الهند صحراء قفرة وفي هذا الفصل يحصل ايضا نمو المواشي
حيث يوجد على الارض ما يقتات به من الحشايش
والاعشاب النابتة فلذا كان جميع حوادث الفرطونات
والرياح العاصفة الشديدة الهبوب في جميع الاماكن تقابل
في الهند بانواع تهليلات الافراح وافعال الثناء والشكر
ولما كانت هذه الحوادث الطبيعية غالبة على عقول الشعراء
من منذ احقاب خالية اطنب في وصفها الشاعر ريغ ويدا
في قصائده المتعلقة بمدح الشمس والشفق وايام الصحو
من السنة والهة الهواء المسماة ماروت الذين يرسلون
الفرطونات والامطار خصوصا التي يحدث عنها خصوبة
البلاد واله الامطار المسمى اندرا الذي يتفضل عليهم
بالغناء والمواشي ولا يوجد شيء من هذه الرياح الحارة ولا من
هذه الامطار الدورية خلف المكان المسمى ايمالنا بوادي
كشمير فانه لا يوجد هنالك رياح حارة ولا امطار دورية فان
المياه تجمد وقت الشتاء هنالك كما في اقطارنا وليس للامطار
ثم في تلك الاودية الكثيرة الخصوبة كبير نفع بل تكون في غالب
الاوقات مضرة وينشأ عن الفرطونات التي تكون في الجبال

ثلوج تقع على الارض القحلة اوصواعق تحرق اشجارا
اوغابات بتمامها وفى مدينة قلقوطة واقليم بنغاله الواطى
توجد امطار دورية غير أنه لا يوجد الرياح الحارة فهذه
الاحوال يمكن أن تبين لنا الاماكن التى عملت بصددها
القصايد

وبين مدينتى سلطانبور وبيناريس مدينة يقال لها وانبور
التى يوجد فيها دون بلاد الهند القنطرة المبنية بالاحجار فان
ارض بلاد الهند بسبب كثرة رملها وفيضان الانهر فيها تمنع
الهنود من بناء قناطر بالاحجار وربما غرقت هذه القنطرة
بالكلية فى بعض السنين التى يكون فيها فيضان المياه خارقا
للعادة ولم تزل قلعة هذه المدينة متسلطنة عليها مع قدمها
وتلاشى بعضها ولا ينتفع بها الآن فى شئ ما وللانكليز على
هذه البلاد تحكم كلى حتى أن حاكمها الاصلى لا يمتاز عنهم
الا بمجرد الاسم

وقد قضيت فصل الامطار فى مدينة بيناريس ثم رجعت
الى مدينة قلقوطة وانا اشاهد المدن المختلفة التى على شواطئ
نهر الكنك واعظم ما يرثى اليه من احوال اقليم بنغاله
الواطى هو بقاء اهله على قبح الاخلاق وسوء التربية بالكلية
ففى البلاد العليا توجد اللصوص وانواع كثيرة من الروافض

غير

غير أن لهم اقل ما يكون هيئة ووقار فى الخدامة وفى القيام بوظائف الحكم وكذلك فى البلاد المنقادة للقمبانية الانكليزية من منذ مدة طويلة فيتعجب الانسان من دناءة نفوس اهاليها وقلة حياتهم وقد احدث الانكليز فيها مجرد الانتظام الظاهرى وكان الاولى لهم ان يحدثوا فيها انتظام حسن التربية وتهذيب الاخلاق لأن اول شوكة بين الهنود انما هى مجرد نوع من الظلم يصير كالآلة له اما الاصاغر من الخدم والمستخدمين فعندهم دناءة النفس حتى فى السرقة وكذب وغش وارباب سكر فترى هؤلاء الطائفة متصفين بأنواع المساوى الموجودة فى الرتبة السافلة من الافرنج ثم ان خادمى الذى صحبنى من اهل البلاد العالية تطبع بتلك الخصال الذميمة مثلهم بعد أن اخبرنى مرارا انه لم يعرف قط احدا من هؤلاء الناس واما التجار فانهم حين ما ارتكنوا الى مجادلات المحاكم الانكليزية رفضوا سلوك الصدق فى مصطلحاتهم التجارية

وقد شاهدت جميع المدن التى على شاطئ نهر الكنك وانه لا يوجد بها كما تقدم شئ من غرائب الآثار الهندية القديمة وكانت مياه هذا النهر لم تزل مرتفعة جدا ولم تنحسر عن النقوش الموجودة فى صخور سلطان غنج فوصلت

الى مدينة قلقوطة فى غاية شهر سبطمبر فاشتغلت فيها
بتجهيز أدوات السفر الى وطنى مع التأسف والحزن لما أن
وسائطى قد نفدت بالكلية فاضطررت الى أن انظر الى تلك
البقاع * التى كان يلزم لى مشاهدة كثير من احوالها
وغرائبها نظرة الوداع * والاحظها بعين التأسف والاقلاع
* والى هنا انتهت سياحة الهند وكان تهذيب ألفاظها
وتنقيحها * ومقابلتها بقدر الامكان مع مترجمها وتصحيحها *
بمعرفة الفقير لرحمة ربه الجليل * محمد الفرغلى ابن اسماعيل *
الطهطاوى * غفر الله له جميع المساوى *
مع ملاحظة حضرة البيك ناظر قلم
الترجمه * ومدرستى التجهيزيه
والالسنه * احسن الله
للجميع احوالهم *
وختم بالصالحات
اعمالهم *
امين

وقد كمل طبعها الجميل * ورونق رقمها الذى ليس له مثيل *
بدار الطباعة المصرية البهيه * احدى المآثر الخديوية
الجليه * يوم الاثنين فى عاشر شهر ربيع الثانى * سنة خمس
وستين ومأتين بعد الالف من هجرة من اوتى السبع المثانى
* صلى الله وسلم وبارك عليه * وعلى آله واصحابه ومن
ينتمى اليه * وذلك فى ايام ولاية دولة صاحب العز
والاقبال * والسعد الطالع بالمجد
والاجلال * حضرة افندينا الصدر
الاعظم * الحاج عباس باشا
المشير الافخم * متع الله
الانام بدوام ايامه *
ونفع الجميع بمسك
ختامه *
امين
م